الأعمال الكاملة  زهدي الداوودي

وداعاً نينوى

رجل في كل مكان

روايتان



الأعمال الكاملة

٢

زُهْديْ الداوُدِيْ

وداعاً نينوى - رجل في كل مكان

رواية

اسم الكتاب: وداعاً نينوى – رجل في كل مكان "رواية"

تأليف: زهدي الداوودي

من منشورات ئاراس، رقم: ٧٧٩

التنضيد: دارا أحمد + كاروان نادر

التنقيح: أوميد البناء

الإخراج الفني: سَنگر عبدالقادر عثمان

الغلاف: مريم موتَقيان

الطبعة الأولى – ٢٠٠٨

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة في إقليم كردستان: ٢٠٠٨/١٧٦٠

وداعاً نينوى

"تستطيع أن تسلب مني كل شيء، أما إرادتي فلا"

يوم من أيام كانون الثاني ١٩٧٩

أدار مقبض الرونيو مرّتين، فخرجت نسختان راح يتأملهما بدقة. كانتا قد طبعتا بشكل نظيف وجيد. وعندما ضغط على الزر بدأ الجهاز بالضجيج. كانت السماء وراء النافذة عميقة، تتخللها ندف من السحب البيضاء تحيط بشمس كانون التي كانت تحاول عبثا نشر الدفء في الهواء البارد القادم من قمم الجبال البعيدة المكسوة بالثلوج. ورغم البرد كانت الورود الحمراء والصفراء والوردية التي تلمع تحت أشعة الشمس الواهنة تعلن عن ربيعها الخاص بها. أشجار الكالبتوس والصنوبر كانت هي الأخرى تتحدى الشتاء بأوراقها دائمة الخضرة.

فكّر أنه لشيء غريب أن يكون الربيع في حضن الشتاء. وكانت رتابة ضجيج جهاز الرونيو تثير في نفسه أفكار وذكريات تنقله الى خارج هذا المكان الممل والرتيب. وفيما هو غارق بأفكاره تلك، أحسّ بيد تمس كتفه. التفت بتوتر كمن يتوقع شيئا، كان وجه الدكتور عادل، مقرر القسم، جادا على غير عادته. حدقا في بعضهما كما لو أنهما يستطلعان أمرا ما.

قال وهو يحس بإنقباض في أعماقه:

– هل من جديد؟

أجاب بملامح منكمشة لم يعهدها فيه من قبل:

– دع الجهاز الآن.

وسحب يده من الزر فسكت الجهاز:

– إسمع صالح. لقد تكلموا معك مرارا وتكرارا وانت مازلت على عنادك.

والآن يريدك الدكتور خليل بنفسه. أين المفر الآن؟ إنني أخشى عليك. هل تدري ماذا حصل اليوم؟

لاحظ الدكتور صالح أن صاحبه خائف حقا، فناوله سيكارة ثم سحب الكرسي مقاطعا أياه:

– إجلس الآن. مهما يحصل فإن الدنيا لاتنقلب اليوم.

أشعل عادل سيكارته بإنفعال وواصل كلامه بصوت خافت:

– مسألة لاتحتمل، مسألة لاتحتمل أبدا. تصور، ذهب طالبان من قادة الاتحاد الوطني الى الدكتور مجيد في داخل القاعة الامتحانية وأجبراه على التوقيع على طلب الانتماء الى الحزب.

سأل صالح بفضول وخوف:

– أمام الطلاب؟

– كلا، خارج القاعة، في غرفة رئيس قسم اللغة العربية.

قال صالح، متيقناً في نفسه أن الساعة التي كان يتوقعها منذ زمن غير قصير قد دقَت الآن:

– وماذا تريدني أن أفعل؟

– يجب أن تذهب اليه الآن فوراً.

قال بهدوء، محاولاً التغلب على إنفعاله:

– سأذهب اليه بعد الأنتهاء من طبع هذه الرزمة.

وضغط على الزر بقوة ثم أدار قرص السرعة. وراحت بكرة الجهاز تقذف الأوراق بسرعة كبيرة. وسرعان ما توقف الجهاز معلنا إنتهاء سحب الكمية المطلوبة من الأسئلة الإمتحانية.

أدار ظهره الى الجهاز كما لو أنه يريد أن يودعه الى الأبد. وأشعل سيكارة، وهو يجيل نظراته في وجوه الآخرين من أعضاء اللجنة الامتحانية المنكبين على أوراقهم. ووجد نفسه وحيدا، غريبا بين هؤلاء الزملاء.

قبل أيام جاءه ناظم، أو الاستاذ ناظم الذي لايسمح أن يناديه أحد بإسمه المجرد، وأبلغه أنه يريد التحدث معه في مسألة مهمة. وذهبا إلى إحدى القاعات الفارغة. ووقفا والصمت مطبق عليهما. كان الاستاذ ناظم بقامته القصيرة وعينيه الضيقتين المنغوليتين مرتبكا، ينظر الى الأرض وهو يمسك حافة رحلة بإنفعال. كان يعرف ماذا يريد ناظم. واستغرب لإختيارهم إياه لهذه المهمة. ألم يجدوا من هو أفضل منه، هذا الذي لايمر يوم دون أن يوقعوه في مقلب. ترى، هل هذا اللقاء هو ايضاً أحد هذه المقالب؟ مستحيل، أنهم أخبث من أن يتورطوا في مثل هذا المزاح الخطر. وحدق في عينيه الذابلتين، قال دون أن يحيل عينيه عن وجهه:

– ألا نبدأ بالموضوع يا أستاذ ناظم؟ أمامي أشغال كثيرة.

رفع الأستاذ ناظم رأسه بحركة منفعلة يتميّز بها، محاولاً توجيه حدقتي المجحرين الذابلين الى وجه صالح:

– خولتني المنظمة الحزبية أن أتحدث معك. أنت تعرف أن الجميع يحترمونك. وبسبب المنزلة التي تتمتع بها أتصلنا بك من جانبنا حرصاً منّا عليك. وخوفا من أن يلتجيء البعض الى أساليب لانريد أن تمارس ضدك كما حصل مع الآخرين. إنك يجب أن تنتمي

قال متصنعاً الهدوء وكاتماً غيظه:

– الإنتماء يجب أن يكون برغبة ذاتية، وأنا أحب أن أبقى مستقلاً.

بدا له أن الأستاذ ناظم لم يفهمه، أو أنه كان مشغولاً في قرارة نفسه بأشياء أخرى. وكانت ثمة أجوبة كثيرة تحضره، بيد أنه كان يعرف أن عواقب النطق بها ستكون وخيمة.

– إن بقاءك خارج التنظيم يسبب ضرراً كبيراً ليس لك حسب، بل لنا أيضاً.

– أنا أشكر شعوركم تجاهي، ولكنني كما قلت أحب أن أبقى مستقلاً.

قال الأستاذ ناظم بنوع من الحدّة كما لو أنه استنفد كلامه:

– أفهم من كلامك أنك مصر على عدم الانتماء.

قال بأعصاب باردة:

– لست ضد الانتماء كمبدأ، ولكنني غير متهيء في الوقت الحاضر لمثل هذه المهمة.

قال بلهجة تشم منها رائحة التهديد:

– ولكنني أخشى عليك يا دكتور صالح.

تذكر بعض مواقفه القديمة ورثا لحاله أمام هذا الانسان الضئيل المنفعل الذي يصغره بعشر سنوات. اعتدل في مكانه رافعاً رأسه بعد أن كان متكئاً على إحدى الرحلات، قال بهدوئه المعهود:

– تخشى عليّ يا أستاذ ناظم؟ من أي شيء تخشى علي؟ إني أشم من كلامك رائحة التهديد.

نظر الدكتور صالح الى ما وراء النافذة. كانت الورود الزاهية تطل عليه بهاماتها كما لو أنها تقول، سنبقي ربيعا أزليا رغم أنف الشتاء. وكاد أن يسترسل في شروده الممتع لولا أن صوت الأستاذ ناظم أرجعه الى الواقع المر:

– هل يمكنك ذكر الأسباب التي تمنعك من الانتماء؟

سبق أن ذكرت لك أحد الأسباب. وهناك أسباب أخرى منها مسألة الوقت ووضع قانون الخدمة الجامعية الجديد الذي يلزم الدوام المستمر من الثامنة صباحاً حتى الخامسة مساء والمحاضرات الكثيرة والتحضيرات والامتحانات والإرشاد وإجتماعات القسم والندوات واللجنة العلمية...

قال الأستاذ ناظم كمن وجد الجواب الحاسم:

– من الأفضل أن تنفذ ثم تناقش.

ابتسم صالح بسخرية وعلق:

– هذا الكلام ينطبق على المنتمي، وليس على إنسان مستقل مثلي.

هزَّ الاستاذ ناظم رأسه باستخفاف قائلاً:

– أنت تتبجح بالإستقلالية يا دكتور صالح، ولكن مجمل كلامك يناقض هذا الإدعاء، السبب لايكمن فيما تريد أن تتصنعه. أنت منتم الى تنظيم سري.

رأى صالح أن لعبة التهديد ساذجة جداً. وان الأستاذ ناظم لايتقن تمثيل دوره بشكل جيد. قال متصنعاً السخرية:

– تنظيم سري؟ هذا إكتشاف جديد يا أستاذ ناظم. هل يمكنك أن تقول لي ما هي هوية هذا التنظيم؟

قال كالواثق من نفسه:

– الحزب الشيوعي.

قال متظاهراً بالغباء:

– أليس الحزب الشيوعي حزباً علنياً وحليف البعث في الجبهة الوطنية؟

قال الأستاذ ناظم بعد هنيهة تفكير:

– هذه مسألة أخرى.

– حسناً، لنترك هذه المسألة، ولكن اذا كنتم متأكدين من كوني منتسباً الى تنظيم سري، فلماذا لاتستغنون عن خدماتي في الكلية؟ ألا تعرف أنها لاتقبل في صفوفها سوى البعثيين والمستقلين.

قال متباهياً كمن يعرف أسراراً لم يطلع عليها غيره:

– الآن تغيرت الوضعية. هناك قرار من مجلس قيادة الثورة يقضي بحسم الأمر مع المستقلين، وإلا فلا مكان لهم في الجامعات.

قال صالح في نفسه وهو يتطلع الى الأشجار العالية وراء النافذة: هذا هو إذن بيت القصيد الذي أفصح عنه الاستاذ ناظم.

•••

ألقى الدكتور صالح بعقب سيكارته على الأرض وسحقه بقوة بحذائه. ذهب الى المغسل وغسل يديه بمسحوق ليزيل آثار حبر الرونيو. ثم ذهب الى الكافتريا وهو شارد الذهن. أشعل سيكارة أخرى ليدخنها مع الشاي وراح يفكر هذه المرة بجد في مصيره. وتذكر عبارتين من كلام الأستاذ ناظم: ولكنني أخشى عليك يا دكتور صالح وحسم الأمر مع المستقلين. لقد حسم الأمر فعلاً مع كثيرين، ولكن بقي هو. والآن؟... مازال الدكتور خليل ينتظره في غرفته، أجل، الدكتور خليل بنفسه هذه المرة وليس الأستاذ ناظم.

من هو الدكتور خليل؟

كان الدكتور خليل يفخر أنه أعد أطروحته في الولايات المتحدة دون أن تغره مظاهر الحياة الاميركية، ودون أن ينقطع عن متابعة أخبار الوطن والتفكير في العودة إليه بأسرع وقت ممكن. وفي العام ١٩٧١ عاد الى الوطن بعد أن حصل على شهادة دكتوراه فلسفة في التاريخ بدرجة جيد جداً. وتم تعيينه في الجامعة. كان متأثراً بالأفكار الديمقراطية والتقدمية ويحاول إيصالها، من حيث يريد أو لايريد، الى الطلبة. لعله كان يفعل ذلك من باب الموضة الجارية آنذاك.

ذات يوم من أيام نيسان ١٩٧١ دخل القاعة كعادته دون أن يعلم بوجود خطة مبيّتة ضده. وبدأ يشرح كيفية انتقال المجتمعات البدائية من الكهوف الى مجمعات سكنية من صنعها هي. وفيما هو مسترسل في كلامه، رفع أحد الطلبة الجالسين في الصفوف الخلفية يده طالباً الكلام. وحين سمح له بالسؤال، استفسر عن أصل الانسان الذي يعيش في الكهوف.

أجال الدكتور خليل عينيه في العيون المحدقة وبعد أن شبك أصابع يديه ببعضهما، راح يشرح من وراء منبره عملية إنتقال القرد الى الانسان والدور الحاسم الذي لعبه العمل في ذلك.

قال أحد الطلاب مبتسماً بسخرية:

– اننا اذن كنا قردة.

علق الدكتور خليل مازحاً ومبتسماً أيضاً:

– وهل اكتشفت هذه الحقيقة الآن؟

وضحك الجميع.

قال أحد الطلاب:

– وآدم عليه السلام؟ ما هو موقعه من الإعراب؟

أجاب طالب آخر:

– دمية طينية صنعها الله في وقت فراغه.

وضحك الجميع مرة أخرى.

طرق الدكتور خليل على المنبر قائلاً:

– هدوء رجاءً، لا أسمح بالتجاوز على حرمة الدين.

قال الطالب الذي طرح السؤال بشكل استفزازي:

– استاذ، إن ما يجري في المحاضرة هو كفر وزندقة. إن الادعاء بأننا ننحدر من القرد يقودنا الى نبذ الاديان السماوية وإنكار الله عز وجل والقرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم.

– استغفر الله، هذا هو منتهى الكفر والألحاد، إننا جئنا الى هنا كي نتعلم وليس من أجل أن نتحول الى كفرة.

وتبعه طالبان وطالبة.

قال طالب كما لو أنه يريد أن يطمئن الدكتور خليل:

– أستاذ، هؤلاء يقومون بهذه اللعبة مع كل الأساتذة. غايتهم ضرب الدرس.

شعر الدكتور خليل أن الورطة التي وقع فيها ليست هينة، وانه كان ينبغي أن يشرح الموضوع بشكل آخر، هذا رغم قناعته أنه لم يتجاوز محتوى المنهج المقرر.

***

كان ذلك في يوم جمعة عندما كان الدكتور خليل ماشياً لوحده في أحد شوارع السراجخانه. وكان قد أعتاد أن يقضي معظم نهارات أيام الجمعة بالتمشي. وبعد أن انتهى من شراب زجاجة البيبسي كولا، وقف متأملاً نهر دجلة الممتد على محاذاته صف طويل من أشجار الكالبتوس العملاقة. ترك منطقة الغابات ووصل الجسر القديم، عابراً إياه الى زحام السراجخانة. وقف كعادته متكئاً على سياج الجسر الحديدي، يتأمل نهر دجلة. كان النهر ينساب هادئاً تحت السماء الزرقاء الصافية، ويتلاشى في الافق البعيد ملتوياً الى ما وراء سلسلة الهضاب المتداخلة في صفوف الأشجار البعيدة الغارقة في ضباب أزرق خفيف. وأحس في داخله بنوع من الغربة والوحدة، بيد أن دفء شمس نيسان أيقظ في نفسه شعوراً آخر واندفع مواصلاً سيره. وقادته قدماه الى مكانه المفضل مطعم الباجة الشعبية الذي عرفه على صاحبه صديق موصلي. وحين إتخذ مكانه في الركن رحب به الحجي بكلمات لم ينتبه اليها، إذ أنه كان مشدوداً بكل حواسه الى صوت الخطيب الأجش والمنفعل الصادر من مكبرة المسجد القريب.

– دكتور، عندنا اليوم باجة درجة أولى مع بصل أبيض. والطرشي كوي مالو مثيل.

للمرة الثانية لم ينتبه الى كلام الحجي، فاكتفى بهز رأسه قائلاً بلا إرادة منه:

– طبعاً طبعاً حجي.

كان صوت الخطيب يتسرب الى أذنيه كما لو أنه أشعة قاتلة:

– إن أهل الزندقة والإلحاد يجب أن يحاربوا بلا شفقة. وانهم يجب أن يقتلوا وقتلهم حلال، فلا شفيع لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة. إن المدعو الدكتور خليل أحمد، هذا الشيوعي الصهيوني والزنديق اللعين، قد أحل الله قتله ورجمه فهو قد حول جامعة الموصل الى منبر للكفر والإلحاد،

ويدّعي أن الانسان إنما ينحدر من القرد وان لا وجود لآدم عليه سلام... أجل أيها المسلمون، هذه هي ثمار جامعة الموصل التي أردتموها...

قال الحجي وهو يضع الصحون على المنضدة الهرئة ودون أن يعرف بأن المقصود هو زبونه:

– أستغفر الله توبة يا ربي، استغفر الله ألف مرة، هل صحيح يا دكتور يوجد عندكم في الجامعة مثل هذا الشخص؟

تحول شحوب وجه الدكتور خليل الى بياض. عدَل من وضع نظارته الطبية وهو يتفحص شرائح الخبز المثروم ولحم الباجة. قال متصنعاً ابتسامة:

– حجي، الجامع قريب من هوني.

– قصدك دكتور؟

– صلاة الجمعة.

قال بخبث:

– دكتور، تعرف أنا عندي عرق النسا، حركتي بطيئة في الصلاة، ما الحق بهم.

– الأعمال بالنيات يا حجي.

كان يتمنى أن يسمع كلام هذا الخطيب بعد الأكل وليس قبله. وأما الآن فقد ولّى الجوع وولّت الشهية. وعبثاً حاول أن يستعيد شهيته بتناول قطعة من الطرشي. وبغتة ظهر أمامه رشودي المجنون كالشبح بشعره الأشعث الطويل وقد التف بمجموعة من الاسمال البالية.

شعر براحة داخلية فابتسم مرحّباً به ومؤشراً اليه بالجلوس. وتقدم رشودي بحركته المعهودة كما لو أنه إنسان آلي وإتخذ مكانه بجانبه.

قال الدكتور خليل كما لو أنه عثر على من ينقذة من ورطة:

– رشودي، هذا الطعام كله لك.

قال الحجي باستغراب:

– ما هذا دكتور؟ إنه سيأكل حتى الصحن.

– دعه يا حجي، إنه قسمته.

وضع الصحون أمامه وراح يلتهم الأكل التهاما. وعندما انتهى من تنظيف الصحون، أجال عينيه في محجريهما وحدق في وجه الحجي بنظرة جانبية حادة قائلاً بلهجة آمرة:

– حجي، جيب لي ماي.

قال الحجي بحدة:

– كلب ابن الكلب، بقى أنا خادم مال أبوك؟

التفت رشودي الى الدكتور خليل قائلاً:

– شوف دكتور، هذا حجي، خلي يتدلل.

قام من مكانه وشرب من الحب، ثم عادَ الى مكانه بحركة آلية.

– أستاذ، من فضلك إستكان شاي.

– سأطلب لك استكانات يا رشودي إذا حدثتني عن عملك.

أخرج الدكتور من جيبه قطعة نقدية ووضعها في يد رشودي. أحدث هذا صوتاً أشبه بصرير جهاز آلي كوني وعبر الطريق الى الجانب الثاني، حيث مقهى صغيرة تتسع لأربعة أشخاص فقط.

قال الحجي وهو يرفع الصحون:

– لاشك أنك فقدت شهيتك يا دكتور حين رأيت هذا العفريت. هل تدري أن هذا المجنون كان معلماً؟ ويقال أنه كان يحب أبنة أحد الأثرياء، فلما لم يوافق أهل البنت على الزواج، أصيب بلوثة في عقله.

قال الدكتور خليل وهو مازال تحت تأثير صعقة صوت الخطيب:

– حجي، إن أي واحد منا مرشح لأن يتحول الى أسوأ مما عليه هذا البائس.

– الله قادر على كل شيء ويفعل ما يشاء.

جاء رشودي حاملاً بيديه صحناً من الألمنيوم عليه ثلاثة أقداح شاي، سائراً بخطوات حذرة وراح يوزع الأقداح:

– هذا الاستكان للأستاذ وهذا الاستكان للحجي وهذا الاستكان لرشودي.

قال الدكتور خليل ضاحكاً:

– شكرا يا رشودي.

قال رشودي بصوت خافت متعب محركاً شفتيه ببطء دون أن تبدو على قسمات وجهه الصارمة أية حركة:

– لا يا أستاذ، رشودي يشكرك على الشاي. رشودي من الرشاد يا أستاذ، إنه جاء لإرشاد الناس وخدمتهم.

ومن أين جاء رشودي؟

فرح رشودي للسؤال وراح يأتي بحركات طفولية معبراً عن فرحته:

– وأخيرا عثرت على من يتحدث بجد مع رشودي،رشودي، يا أستاذ ليس من أهل كرتكم الأرضية، رشودي جاء من كوكب آخر.

قاطعه الحجي وهو يمسح عينيه الدامعتين تأثير البصل المثروم:

– كافي خرط يا رشودي، أنت مو مال وجه.

قال الدكتور وهو ينتبه بفضول الى رشودي:

– لا يا حجي، كلام رشودي جميل.

قال الحجي وهو يحاول التناغم مع الدكتور في استنطاق رشودي:

– رشودي، أحكيلنا عن الحياة في الكوكب الذي جيت منو.

قال رشودي متصنعاً الانفعال:

– حجي، ما تسمع مني كلمة واحدة اذا لم تعطيني سيكارة.

ناوله الحجي سيكارة. وراح رشودي يمتص الدخان بشراهة. إتخذ وضعية مريحة ووضع ساقاً على آخر، قال:

– آه، لو كان سكان أرضكم كلهم مثل الأستاذ ومثلك يا حجي لتركتكم فوراً لأؤدي واجبي على كوكب آخر.

قال الدكتور خليل بفضول، محاولاً نسيان أثر صوت الخطيب:

– الآن دون مقدمات، حدثنا يا رشودي عن كوكبك.

قال رشودي ساهماً ومحدقاً في الفراغ كما لو أنه يرى شيئاً بعيداً:

– أستاذ، كنت أتمنى لو تزور كوكبي. هناك كل شيء أخضر. لاتوجد صحاري ولا جبال كلسية جرداء، لاتوجد جيوش أو معسكرات، لا أغنياء ولا فقراء. تستطيع أن تأكل ما تشتهي. القاضي لايوقع عقد الزواج، إلا إذا أثبت طالبا الزواج أنهما عاشقان. رشودي لا يتسكع ويتسول على هذه الأرض. هذا هو كوكبي يا استاذ، هل تريدني أن أحدثك أكثر؟

قال الدكتور خليل وقد شرد الى ذهنه بعيداً الى تلك العوالم التي طالما شاهدها في الأفلام الخيالية:

– ومتى جئت الى أرضنا يا رشودي؟

لم يكن رشودي يتوقع مثل هذا السؤال. أغمض عينيه وراح يعصر رأسه بيديه. وتراءت له أجزاء

كوكبه الوردية والحقول الخضراء الممتدة التي تتخللها أشجار أنواع الفواكه والبيوت البيضاء التي تحيطها أسيجة من النباتات المتسلقة والأزهار الملونة الزاهية. قال كمن يتحدث مع نفسه:

– أنا أيضاً أريد أن أعرف متى جئت إلى هذه الأرض.

قال الحجي ساخرا:

– ها رشودي نسيت؟

أغمض عينيه وراح يعصر رأسه مرة أخرى. وبغتة رفع رأسه قائلاً:

– تذكرت، الآن تذكرت، لأول مرة أتذكر ساعة وصولي الى أرضكم منذ وجودي بينكم. جئت الى أرضكم في يوم بارد من أيام شهر شباط، أعذرني يا استاذ، أنا لا أتذكر السنة. الارقام لا تستقر في ذاكرتي، ولكنني متأكد أن الشهر كان شهر شباط. كان البرد في ذلك الشتاء قارساً جدا، حتى إنني أحس الآن بالبرد حين أتذكر شباط. وصلت أرضكم عبر دهليز مظلم من دهاليز قصر كبير. كان القصر مهجورا، فيما مضى سكنه أحد الملوك. لقد عاملني سكان أرضكم بقسوة لا يعرفها أهل كوكبي شدوا يدي وعلَقوني من رجلي بمروحة سقفية وراحوا يلهبون جسدي بالضرب المبرح ويرشون عليَ الماء البارد. وبين حين وآخر يمررون تياراً كهربائياً بجسدي. كانوا يريدون أن يعرفوا مني أسرار الكوكب الذي جئت منه. لم يكتفوا بذلك كله، بل راحوا يشدون قضيبي بالحبل ويضربونه بالعصى...

وقبل أن يكمل كلامه، أطلق صيحة ألم حادة وصرخ:

– لا، لا، لا.

تكوم على الأرض وأطرافه المتشنجة تهتز كما لو أنه حيوان مذبوح، وراح يقذف الوغف من فمه. قام الدكتور خليل من مكانه وقد سرت رعشة خوف في كيانه:

– كان ينبغي أن لانسترسل في الحديث معه يا حجي.

أخذ الحجي يصب الماء بهدوء على وجه رشودي، ويقول بلامبالاة:

– لا داعي للخوف دكتور، هذه الحالة تنتابه دائما. سيستعيد وضعه الطبيعي حالاً.

دخل المطعم كرديان من منطقة بهدينان، تبعهما إعرابي من الجزيرة. وحين تأكد الدكتور من عدم وجود خطر على حياة رشودي الذي راح يمتص الدخان من السيكارة التي قدمها له الحجي، ودعهما قائلاً:

– شد حيلك يا حجي، المصلون جياع.

•••

لأول مرة في حياته يحسد إنساناً بائساً مجنوناً مثل رشودي. كان صوت الخطيب يرن في أذنه ويختلط بصيحة رشودي. أحس بحرقة في معدته وبجسامة الخطأ الذي ورطه به الطالب في المحاضرة.

فكر، كان ينبغي أن لا ينجر وراء النقاش. لقد تم تفجير القنبلة، وأصبح مشهوراً في المدينة كملحد. وإذا كان خطيب الجامع يحرض على قتله بهذه السهولة وأمام الملأ، فمعنى ذلك أن عملية التنفيذ قابلة للتحقيق. وليس ثمة قانون يحميه، رغم أنه لم يخرج من إطار المنهج المقرر. وإذا كانوا اليوم لايعرفون شخصه، حتى صديقه الحجي لايعرف اسمه، فإنهم بالتأكيد سيتعرفون عليه غدا، والغد لناظره قريب. والخطأ الذي ألصقوه به غير قابل للتصحيح. ولاسيما في هذه المدينة التي تعتبر فيها منارة الجامع أعلى بكثير من مستوى الجامعة. إن خطأه أشبه بالرصاصة التي تغادر فوهة البندقية، فلايمكنها العودة اليها ثانية. وعملية قتله هي أبسط ما يمكن تصوره.يكفي وضع مبلغ ضئيل مع مسدس في يد أحد الشقاة من محترفي القتل والتنويه أن الشخص المقصود إنما هو ملحد يدعو الى الإباحية في الجامعة. وبعد ذلك يتحول الى جثة هامدة متكومة على الأرض، في غرفته بالفندق أو في عرض الشارع. وتذهب كل سنوات الدراسة والتحصيل العلمي أدراج الرياح. وراح يدمدم مع نفسه بإنفعال: حيوان، حمار، قليل التجربة، طالب ساذج يوقعك في مثل هذه الورطة؟ ما هي فائدة الكلام الذي ثرثرت به في المحاضرة؟ أبهذه الطريقة تريد تغيير المجتمع؟ ألم تستطع أن تعبر عن آرائك بصيغة أخرى؟ ألم تستطع أن تتملص من الجواب بأسلوب آخر؟ أن تمنع الطالب من مقاطعة كلامك مثلا؟. كل ذلك لا جدوى منه، لقد خرجت الرصاصة من فوهة البندقية ولن تعود اليها الى الأبد. يجب التفكير الآن في كيفية إنقاذ الجلد. تُرى، هل من المعقول أنهم سيغتالونه؟ أم أنه مجرد تهديد حتى يسكتوه؟ ولكن، لماذا التهديد من خلال مكبرات الصوت؟ ترى، هل هناك مصيدة لايعرف بها؟ كيف تستقبل الوالدة جنازتك؟ وماذا سيقول المشيعون؟ لقد مات ملحداً وزنديقاً، إنه لا يستحق مراسيم التأبين. لاشك أنهم سيرجمون جثته ويبصقون عليها عند إنزالها الى القبر. هل يطلب الى الشرطة حمايته؟ ولكن ماذا يقول لهم؟ وهل الشرطة تحمي الملحدين؟ ربما سيسهلون هم عملية الإغتيال. انتهى ذلك الوقت الذي كنت تذرع فيه الشوارع بكل حرية. الآن لم يعد بمقدورك السير في منطقة الغابات. لقد حكمت على نفسك بالاختفاء الإجباري. والطريق من الفندق الى الكلية وبالعكس؟ كلا، لا مجال للصيانة. لقد أصبح الاغتيال أمراً حتميا، قانوناً جبريا، ولكن لماذا اختارك أنت بالذات؟ هل من الضرورة أن يموت الدكتورخليل، كلا إن الدكتور خليل يجب أن يبقى، يجب أن يبقى مهما كان الثمن، ولكن ما قيمة الدكتور خليل؟ سواء عاش أم لم يعش فإن الحياة ستظل تستمر.

قبل أسبوع قدّم مجموعة من الأساتذة بقيادة الدكتور عبدالرزاق في كلية الزراعة مذكرة الى مجلس قيادة الثورة بواسطة رئيس الجامعة، وقعها هو أيضاً، يطالبون فيها بإلغاء الأوضاع الاستثنائية وإشاعة الديمقراطية في القطر وفسح المجال أمام القوى الوطنية الأخرى، كما واستنكرت المذكرة بشدة الأساليب اللاديمقراطية والاغتيالات التي تجري ضد عناصر المعارضة. ورغم تأكيد الدكتور عبدالرزاق بأن هذه إنما مبادرة شخصية منه لتحريك الجو السياسي الراكد، فإن الدكتور خليل كان يعتقد بأن الحزب الشيوعي هو المحرك. كانا إذذاك جالسين في كافتريا رئاسة الجامعة، فأكد عبدالرزاق بأنه ليست له أي علاقة حزبية ثم تساءل:

– ألم تسمع بأساليب الاغتيالات والتعذيب؟

قال الدكتور خليل بحذر:

– ومحتوى المذكرة؟ الا تشكل لهجته خطراً علينا؟

أجاب الدكتور عبدالرزاق بلهجة الواثق من كلامه:

– إنهم يعرفون جيداً بأننا مستقلون، وأقصى ما يمكن أن يتخذوه بحقنا هو النقل. دعهم لايقصرون في ذلك.

علق الدكتور خليل ساهما:

– صحيح، إننا يجب أن نفعل شيئا.

وراح يدمدم مع نفسه مرة أخرى، حيوان... حمار... خروف، قليل التجربة.طالب ساذج يوقعك في مثل هذه الورطة. كان يجب أن تحذو حذو عبدالرزاق، وليس أن تقوم بثرثرة لا جدوى منها. شعر بصداع حاد يكاد يفجر رأسه. وراح يعصره بيديه تماماً كما فعل رشودي. وضاقت به غرفته، وأحس برغبة شديدة في الالتقاء بالدكتور عبدالرزاق. كانت ساعته الملقاة على المنضدة القديمة تشير الى الرابعة عصرا. لابد أن يغادر الفندق، وإلا فأنه سينفجر. ولكن، ألا تشكل مغادرة الفندق الآن خطراً على حياته؟ لابد أن يبدأ بإتخاذ الحيطة للمحافظة على حياته.

نزع ملابسه التي اعتاد أن يرتديها يومياً في الكلية، وارتدى بنطالاً قديماً وسترة جلدية ووضع نظارة ملونة بدل نظارته الطبية على عينيه. وقف أمام المرآة يحدق في هيئته، قائلاً في نفسه: كان يمكنك أن توفر لنفسك هذه التمثيلية أيها الأحمق، ماذا أفادتك دراستك في أميركا؟

ترك الغرفة ومرّ في طريقه بإدارة الفندق، وبيده نظارته الملونة، التفت الى صاحب الفندق قائلاً:

– أبو أحمد، لقد عثرت أخيراً على شقة. وسأترك الفندق إعتباراً من يوم غد.

قال صاحب الفندق البدين من وراء مكتبه:

– سوف نفتقدك دكتور.

حين مرّت سيارة التاكسي بالدواسة في طريقها الى المجمع السكني لكلية الزراعة في حمام العليل، وقعت عيناه على لافتة فندق أطلس، فقرر أن ينتقل اليه ريثما يجد حلاً لمشكلته. وبعد حوالي نصف الساعة اجتازت السيارة البوابة الرئيسية لكلية الزراعة. كانت أشجار الكالبتوس الباسقة تلقي بظلالها على الطرق الفرعية الكثيرة التي تطرز أرصفتها الزهور الملونة والحشائش. قبل أن تتوقف السيارة، لمح الدكتور عبدالرزاق وهو يسقي الحديقة. طلب من السائق أن يعود بعد ساعتين. ألقى عبدالرزاق الصوندة على الأرض وجاء لاستقباله:

– يالها من مفاجأة سارة، لاشك السيارة قد جلبتك خطأً إليَّ. أهلاً بالدكتورخليل، أهلاً وسهلاً.

رغم أن الجو كان منعشا من خلال الدفء الذي تبعثه شمس نيسان، فإنهما تركا الحديقة الى الداخل. وجلسا أمام النافذة الواسعة المطلة على الحديقة. وبعد أن رحبت به زوجة عبدالرزاق الألمانية بعربية مكسرة، راحت تعد لهما الشاي. قال خليل بدون مقدمات:

– عبدالرزاق، أنا الآن في ورطة كبيرة أعترف بأنني صنعتها بحماقتي. أمامنا الآن ساعتان فقط. يجب أن نفكر بمصيري بجد.

قال عبدالرزاق مندهشا:

– إن شاء الله خير.

تنهد خليل بعمق وآثار الندم بادية على ملامحه:

– لقد خرجت الرصاصة من فوهة البندقية ولايمكن إعادتها الى مكانها. أنا متهم الآن بالإلحاد والزندقة ومكبرات الجوامع تطالب بقتلي.

علق عبدالرزاق مبتسماً وبلهجة من لاتمر عليه المقالب:

– خليل، لسنا في زمن المداعبات، استعمل مقالبك مع غيري.

قال بصوت ممطوط جاد:

– عبدالرزاق، أنا في مأزق، صدقني.

– لا أفهم ما تعني يا خليل، هل أنت في وضع طبيعي؟

– عبدالرزاق، أقول لك أن أحد الطلاب ورطني في نقاش لعين، فأكدت في المحاضرة بأن القرد هو أصل الإنسان.

قال عبدالرزاق وهو ينظر الى الأرض بذهول:

– ثم ماذا؟ أنت لم تخرج من نطاق المنهج المقرر، وماهي قصة المكبرات؟

– طالبت بقتلي.

– هل سمعت ذلك بأذنك؟

مسك خليل صوانيه بيديه قائلاً:

– بأذني هذه سمعت ذلك، وكنت جالساً في مطعم الحاج يونس ومن حسن الحظ أنه لايعرف اسمي، حتى أنه سألني ما إذا كنت أعرف هذا الدكتور الملحد.

قال الدكتور عبدالرزاق وهو بين مصدّق ومكذّب:

– يعني أن المكبرة ذكرت اسمك.

– بالطبع.

– كاملا؟

– كاملاً بلا نقصان.

أشعل عبدالرزاق سيكارة وراح ينفث الدخان. وواصل خليل:

– حتى أنني لم أذق الباجة التي طلبتها، فأكلها بدلاً مني رشودي المجنون.

سكتا هنيهة. كان وقع أقدام زوجة عبدالرزاق يخرق الصمت، قال عبدالرزاق متنهدا:

– أنذال، إنهم من أجل الحفاظ على حكمهم لا يتوانون عن استعمال أقذر الوسائل. على كل حال يجب أن نفكر في إيجاد حل جذري لهذه المشكلة.

قال خليل بفضول مبعثه خوف غريزي:

– هل تعتقد أن القضية هي أكثر من مجرد تهديد؟

هزّ عبدالرزاق رأسه:

– إنها أكثر من مجرد تهديد مع الأسف، إنهم يملكون الآن الورقة الرابحة التي لم يسبق أن حلموا بها.

– ألا يمكنني أن أقدم طلباً سريعاً للنقل؟

أجاب عبدالرزاق وهو مازال شارداً:

– إنهم هم افتعلوها، فكيف يوافقون على نقلك.

جلبت الزوجة أطباق الشاي والكيك ثم عادت الى المطبخ.

قال عبدالرزاق وهو يصب الشاي:

– مشكلة جديدة أخرى، ولكن أعتقد...

قاطعة خليل قائلاً:

– هل لك أيضاً مشكلة؟

– إنها ليست شخصية، مسألة المذكرة، ألا تعرف بها؟

– أعرف بها، ولكن ماهو الجديد فيها؟

– لقد سحب الجميع تقريباً تواقيعهم، جبناء، فلم يبق سوى تواقيع ثلاثة أساتذة من كليتنا لا تعرفهم أنت وتوقيعي.

– غريب، ولكن لم يفاتحني أحد بهذا الشأن.

– إنهم لايعاملون الجميع بنفس الأسلوب، أنت مثلاً خلقوا لك هذه المشكلة من لاشيء.

امتص عبدالرزاق كمية من الدخان من سيكارته وقال بلهجة صارمة:

– أنظر خليل، إن سلاحنا الوحيد في الوقت الحاضر هو الصمود أمام هؤلاء، أنا واثق أن الآخرين سوف يسحبون تواقيعهم ايضا، سنبقى أنا وانت وحيدين في الميدان. إننا يجب أن لاننحني أمامهم. وبالنسبة لي فأنا أتحمل مسؤولية المذكرة، ولذلك لن أتنازل عن حرف واحد مما ورد فيها مهما كانت العواقب. وبالمناسبة هناك إمكانية إيصال نسخة من المذكرة الى الخارج.

تناول خليل قطعة صغيرة من الكيك، وكان أثر الإحراج بادياً عليه، وفي رأسه يرن صوت خطيب الجامع. وشعر أن عبدالرزاق ينتظر منه الجواب بالنسبة لموقفه من التوقيع. وتمنى أنه صمت في المحاضرة، ولو لم يكن قد وقع في مثل هذه الورطة، لتمكن الآن من الكلام بشكل آخر. ولكن، هكذا بدأ يفكر في نفسه، أي صمود هو هذا الذي يمكن ممارسته تجاه مكبرات الجوامع؟ وفكر مرة أخرى: إذا كنت لم نستطيع الصمت في المحاضرة فعليك أن تعرف كيف تصمد الآن أمام صديقك الصامد الذي ثبّت مطالب خطرة في مذكرته. قال بلهجة يائس:

– أعتقد أننا لانسيطع التوصل الى حل جذري لمشكلتي.

قال عبدالرزاق بحماس:

– المشكلة يا خليل هي ليست مشكلتك. إنها مشكلة الديمقراطية. القتل ليس بالأمر الهيّن ومع ذلك حاول أن تكون حذراً جداً في تنقلاتك هذه الأيام. إن هذه الأوضاع الاستثنائية وقتية، لابد أن تنتهي.

كانت أفكاره كلها محصورة في عبارة واحدة تمزق أعصابه: "هذا الزنديق اللعين قد أحل الله

قتله ورجمه". لقد أنتهى كل شيء، الرصاصة لا تعود الى مكمنها أبداً، لا، لايفيد أي شيء، لا سحب التوقيع ولا سحب الكلام، ولا أي شيء آخر. لقد أعلنوا هويتك كملحِد أمام الملأ، ولا يمكن تصحيح هذا الأعلان بأي وسيلة كانت.

قال خليل بعد أن رشف كمّية من الشاي:

– سأذهب غدا الى رئاسة الجامعة وأقدم طلباً فورياً للنقل وفي حالة الرفض سأقدم استقالتي مهما كان الأمر.

قال عبدالرزاق هازاً رأسه:

– أنا واثق من رفض الطلبين. لنر كيف سيكون الوضع. يجب أن أحضر غداً في رئاسة الحامعة. لقد استدعوني بسبب المذكرة.

تمنى خليل أنه لم يأت الى عبدالرزاق، إذا أن همومه قد زادت عن ذي قبل.

•••

كانت الساعة تشير الى التاسعة عندما دخلت السكرتيرة الى غرفة الدكتور خليل. وكان هو يتوقع استدعاءه في كل لحظة، ولذلك كان جالساً كما لو أنه في غرفة انتظار طبيب اسنان. كانت وجنتا سكرتيرة القسم متوردتين، تعلوهما إبتسامتها المعهودة:

– صباح الخير دكتور خليل، استاذ سالم يريدك.

اختفت دون أن تنتظر الجواب، سادة الباب من ورائها.

هزّ رأسه، ودمدم مع نفسه: أستاذ سالم، معاون العميد للشؤون الانسانية والمسؤول الحزبي للكلية. القضية إذن جدّية. ورن في أذنه: "هذا الزنديق اللعين..." وإن سلاحنا في وقت الحاضر هو الصمود... ترى، كيف ستكون المفاجأة؟ وما هو الحل؟ هل يمكن للرصاصة أن تعود الى مكمنها؟ أحس بقواه قد خارت وباليأس قد استبد به. حيوان، حمار قليل التجربة، طالب ساذج يجرك الى مثل هذه الورطة الكبيرة؟ حتى التدخين لم تتعود عليه كي تخفف من همومك. لقد تقشفت في كل شيء، وكنت ضد الشرب والنساء، فماذا فعلت في أميركا؟ فقط، الاختفاء في ثنايا الكتب؟ وجد نفسه ضئيلا، قميئاً تافهاً لا قيمة له.

ذهب الى غرفة الاستاذ سالم. كانت دهشته كبيرة حين رآه وهو يرحب به بكل حرارة ويأخذ بيده ليجلسا معا. وطلب من الفراش أن يجلب لهما الشاي. قال في نفسه: لاشك أن لهذه المقدمات سببا. عندما أتى الفراش بالشاي، طلب اليه أن لايسمح لأحد بالدخول الى غرفته. وأخيرا؟ ألا تريد أن تحرك ساكنا؟ أن تقول شيئا؟ أن تبدأ بالحديث؟ هيا أطلق ما في جعبتك. وأخيرا...

تململ الاستاذ سالم في مكانه جاهداً لإختيار الكلمات المناسبة، فهو في كل الأحوال كحامل

لشهادة الماجستير أقل مرتبة من حامل شهادة دكتوراه فلسفة، رغم اعتقاده أن الشهادة العلمية في الحقيقة لا قيمة لها، أو أنها لاتعكس جوهر حاملها. قال الاستاذ سالم محاولاً التغلب على تلعثمه:

– دكتور خليل، الحقيقة كنت أحب منذ مدة غير قصيرة أن التقي بك، ولكن الأشغال الكثيرة هي التي كانت تحول دون ذلك. والحقيقة ان السيد العميد والطلبة يعتزون بك كثيرا، ولاسيما بسبب طريقة تدريسك الجيدة ومعالجتك العلمية لمادة التاريخ. وانها في الواقع لخسارة للحركة أن يبقى شخص مثلك خارج صفوفنا. ومن جانبنا فقد اتصل بك بعض الرفاق حول مسألة إنتمائك، إلا أنك قد امتنعت بسبب بعض المشاكل الشخصية التي أرجو أن تكون قد زالت.

رنّ جرس التلفون. رفع الاستاذ سالم السماعة معتذرا:

– من فضلك دكتور

ثم راح يكلم الطرف الآخر بحركة تمثيلية:

– نعم، العميد؟ لا، لا، ماذا؟ لا، لا، لم اسمع بذلك. متى؟ همممم... تمام، تمام...

فكّر، ألا يكفون عن هذا الإلحاح؟ وما الفائدة من ذلك؟ الصمود؟ وما الفائدة من ذلك؟ كلاهما لايعيدان الرصاصة الى مكمنها.

أعاد الاستاذ سالم السماعة الى مكانها قائلا، وهو يتصنع الدهشة:

– دكتور خليل، هل سمعت يوم أمس شيئا غير إعتيادي؟

وأخيرا قال خليل محاولاً تصنع اللامبالاة وإضفاء لاسخرية على لهجته:

– نعم يا استاذ سالم، أحد خطباء الجوامع يطالب برأسي.

قال الأستاذ سالم محاولاً تهويل الأمر:

– ماذا؟ أحد خطباء الجوامع؟ كنت يا دكتور خليل يوم أمس حديث الجمعة في كافة مساجد الموصل.

علق خليل بلا إرادة منه:

– تنظيم قوي وجيد.

– هذا هو الصحيح، وهل تدري أن حياتك الآن في خطر جدي؟

– أعرف ذلك.

– فإذن، هذا التنظيم القوي الذي شخصته جيدا، يجب أن يقابل بتنظيم أقوى، وهذا هو السبب الذي يدعونا لمفاتحتك بالإنتماء الى صفوفنا.

– ولكن المشكلة يا أستاذ سالم هي ليست مشكلة الإنتماء، بل مشكلة خطباء الجوامع.

قال سالم كما لو أنه انتصر في لعبة حاسمة:

–دكتور خليل، إنها ليست مشكلة الجوامع حسب، مشكلة توقيعك على مذكرة الشيوعي الخطر الدكتور عبدالرزاق أيضاً. إن مسألة خلاصك من كل هذه المآزق ستحل، اذا انتميت الى صفوفنا، ولعلمك فإن الجميع قد سحبوا تواقيعهم، فلم يبق سوى توقيعك أنت وتوقيعك الدكتور عبدالرزاق. وهو الآن في الرئاسة ومصر على عدم سحب المذكرة.

سكتا هنيهة، انشغل خلالها الاستاذ سالم بتقليب أوراق مفكرة، ثم قام من مكانه يذرع أرض الغرفة ذهاباً وإيابا:

– دكتورخليل، ثق أننا نحبك جميعاً ولا نريد لك أي مكروه، وانت تعرف جيداً أنك الآن في ورطة مع العقول المتحجرة، لايمكن أن ينقذك منها سوى انتماؤك الى صفوفنا.

قاطعه الدكتور خليل بإنفعال اليائس من كل شيء:

– ولكن ماذا يفيدني الإنتماء إذا كانت حياتي مهددة بالقتل؟

أطلق الاستاذ سالم قهقهة صادرة من أعماق قلبه، وقال بلهجة القابض بتلابيب عدوه المرتعد:

– مسكين عرب لاتعرف قوة الرومان، دكتور خليل، إن الحزب الذي صنع ثورتي رمضان وتموز لايستطيع صيانة حياتك حسب، بل صيانة حياة أمة بكاملها. ثق، إذا اقتضت الأمور فإن بإمكاننا هدم حتى الجوامع على رؤوس أئمتها ومصليها.

قال خليل بلهجة المستسلم:

– والضمانة لصيانة حياتي؟

– إنتماؤك، تستطيع أن تتمشى وتتنقل في أي زقاق تشاء وفي إي وقت. وزيادة لإطمئنانك سنزودك بمسدس. ونزوجك يا دكتور خليل ونخلصك من حياة الفنادق الحقيرة.

وضحكا معا. شعر خليل بنوع من الأمان الممزوج بالقلق. واصل سالم:

– بالطبع أنت حر في اختيارك يا دكتور خليل، وانت أدرى بمصلحتك من أي شخص آخر.

فكر خليل بزيارته الى عبدالرزاق والتي زادت من همومه. وردد في نفسه: الصمود، الصمود، ولكن بأي شيء؟ وأحس بنفسه ريشة تتطاير في الهواء وتتمايل يمنة ويسرة:

– أنا مبدئياً موافق على الإنتماء.

شدّ سالم يده بقوة قائلاً:

– هل نبدأ بالإجراءات الآن أم في وقت آخر؟

– وهل هناك داع للتأخير؟

– طبعا لا.

قال ذلك وهو يبحث عن بعض الأوراق في حقيبته، ثم اتخذ مكانه الى جانبه:

– تكتب طلباً للإنتماء الى حزب البعث مع موجزة عن إنتمائك السابق، إذا كان ثمة إنتماء سابق. وأما بالنسبة الى التوقيع، فسآخذك بسيارتي الى الرئاسة. وهناك تسحبه بكتابة توضيح صغير ما محتواه أن القضية كانت مجرد إلتباس.

– ولكن يجب أن أذهب الآن الى المحاضرة.

– لتذهب المحاضرة الى الجحيم، حياتك أغلى من أي شيء آخر.

ترك الغرفة بعد أن ناوله استمارة:

– انشغل بكتابه الطلب وملء الاستمارة، سآتيك بعد نصف ساعة، بعد ذلك سنتوجه الى الرئاسة.

•••

عندما اجتاز الدكتور عبدالرزاق بوابة الجامعة بسيارته الموسكفيج، لمح رجلين يقفان لصق بعضهما كما لو أنهما بإنتظار أحد.وأحس أنهما تفرسا في وجهه بصورة غير اعتيادية، ورغم أنه اشتبه بواحد منهما، إلا أنه لم يستطع أن يتذكر أين رآه. وخفف من سرعته وراح يحدق اليهما من خلال المرآة. كانا يتابعانه بنظراتهما. وبعد أن أطفأ المحرك، انتظر هنيهة، فلم يظهر أي واحد منهما. وترك السيارة منعطفاً الى البناية الرئيسية. عندما دخل المصعد وجدهما أمامه. قال أحدهما بعد تحرك المصعد:

– استاذ أين الذاتية رجاء؟

أجاب بلهجة إستهانة:

يمكنك الاستفسار من الاستعلامات.

علق بلهجة وقحة:

– العفو أستاذ.

وترك المصعد في الطابق الأول. تأخر عدة دقائق في غرفة الذاتية ثم نزل السلم وتوجه الى غرفة مساعد الرئيس للشؤون الثقافية. اتخذ مكانه في غرفة السكرتيرة، طالباً منها أن تبلغ المساعد بوصوله. قالت السكرتيرة بإستعلاء:

–اسم حضرتكم رجاء؟

– دكتور عبدالرزاق من كلية الزراعة.

– أهلا بالدكتور، الدكتور مساعد الرئيس مشغول الآن، هل ممكن رجاء أن تأتي بعد نصف ساعة؟

قام من مكانه وقال بصرامة وهو ينظر الى ساعته:

– لا يا آنستي غير ممكن. موعدنا الساعة العاشرة والنصف، هو الذي حدّد الموعد وليس أنا.

– حسنا، سأبلغه بحضوركم بعد عشر دقائق. يمكن أن تشربوا خلالها إستكان شاي في الكافتريا.

– كلا يا آنستي، بلغيه بحضوري فورا، وإلاّ فسأخرج من هنا ولا أعود مرة أخرى، إنه هو الذي طلبني.

كان مساعد الرئيس يقرأ الصفحة الأخيرة من جريدة الجمهورية.

– صباح الخير دكتور.

– أهلاً وسهلاً دكتور تفضل استريح.

– أخبرتني السكرتيرة أنك مشغول.

– إنها تبالغ أحيانا، نبهتها مراراً وتكراراً أن تتخلص من هذه العادة.

قال واضعاً أحد ساقيه على الآخر:

– على كل حال إنني يجب أن أكون بعد ساعة في الكلية، لذا أرجو أن ندخل في الموضوع.

قال مساعد الرئيس بهدوء الموظف المسلكي الذي قضى عمره وراء كل أنواع المكاتب:

– دكتور عبدالرزاق، أحب أن أتحدث اليك بصراحة. العفو تحب تشرب شاي أم قهوة؟ القهوة أحسن، عندنا قهوة جيدة.

وبدون أن ينتظر الجواب كلم السكرتيرة بجهاز السماعة طالباً فنجاني قهوة:

–العفو دكتور، ثق بالله العظيم إني ليست لي أية مصلحة في الموضوع، إني أكبر منك عمراً وتجاربي أكثر. عشت عدة عهود دون أن يمسني أحد بسوء أو ينتزع مني كرسيي. في عام ٥٩ صفقت مع الشيوعيين حتى تورمت يداي. وعندما انقلب عليهم قاسم هتفت ضدهم حتى التهبت حنجرتي. وفي شباط ٦٣ هلهلت للبعثيين وعندما انقلب عليهم عارف في تشرين هتفت ضدهم. وفي تموز ٦٨ اشتركت في مظاهرات البعثيين، وقبل أن يطلبوا مني الإنتماء الى حزبهم، أسرعت الى تقديم طلب بعرض هذه الجريدة، شرحت لهم فيها نضالاتي وتضحياتي في سبيل البعث منذ تموز ٥٨ وتم قبولي فوراً في صفوفهم، ولكن... حقيقة واحدة أحب أن أقولها لك يا دكتور هي أني

لم أؤذ أحداً ولم أقتل حتى فأرة حين حملت السلاح مع الحرس القومي. ثق أن الناس كلهم هكذا، تفضل سأريك الآن وثيقة تشهد على ذلك.

وأخرج بزهو من بين أوراقه ثلاث أوراق مثبتة ببعضها بدبوس، عرف الدكتور عبدالرزاق أنها مذكرته، قال ملوحاً بالأوراق:

– تفضل، هذه هي مذكرتك، هل تدري كم توقيعاً تحمل؟ توقيعاً واحداً فقط وهو توقيعك.

قال الدكتور عبدالرزاق بصورة لا إرادية:

– لا يا دكتور، هناك أكثر من توقيع.

– آخر من سحب توقيعه يا عزيزي الدكتور عبدالرزاق هو صديقك المخلص الدكتور خليل. كان هنا قبل أقل من ساعة. ولم يكتف بذلك، بل كحله بتقديم طلب للإنتماء الى حزب البعث.

قال عبدالرزاق بلهجة قاطعة:

– مستحيل.

– هل تحب أن ترى طلبه؟

طُرق الباب، دخلت السكرتيرة حاملة فنجاني قهوة، قالت:

– هناك شخص يريد مقابلتكم.

قال دون أن يلتفت اليها:

– لينتظر.

واصل بعد صمت قصير:

– دكتور عبدالرزاق فكر بعائلتك، بأهلك، بنفسك وثق إني تهمني مصلحتك لا غير.

قال عبدالرزاق مبتسماً وهو يسخر في أعماقه من كلماته:

– دكتور، ماذا تريدني أن أفعل بعد هذه المقدمات التي أشم من بعضها رائحة التهديد؟

– دكتور عبدالرزاق، ليس أنا الذي يهدد. ألا ترى الأشياء بعينيك؟ أنت صاحب عقيدة. المفروض أن تحس بالأشياء بسهولة. أنا أتحدث معك بصراحة، لأنني أعرف أنك لا تثرثر ولا تورطني.

–أين هي إذن الأهداف التي جاءت في بيان ٦٨؟ هل المطالبة بالديمقراطية والحريات العامة جريمة؟

قام المساعد من مكانه وجلس لصق الدكتور عبدالرزاق، وراح يهمس في أذنه:

– هل تعتقد أنهم يثقون بي أنا؟ هل ترى جهاز التلفون، إنه يسجل كل شيء، كن عاقلاً يا دكتور، هل تصدق بالبيانات والتصريحات والشعارات، كلها كذب وكلاوات يا دكتور، هل نسيت

شباط ٦٣؟ إنهم نفس الزمرة، ولكن مع تغيير بسيط في الأسلوب. هل سمعت بالتصفيات الجسدية؟ لاشك إنك تتصور أني أريد التجسس عليك بطريقتي هذه، ولكن ثق، أقول لك كل ذلك خوفاً عليك.

– دكتور سبق أن جمعنا الخبز والملح أكثر من مرة، قل لي بحق النعمة، هل طلبوا منك أن تتحدث معي بهذا الأسلوب أم أنه من عندك؟

– ثق أنه من عندي.

– والآن... النتيجة؟

– النتيجة، النتيجة عندك.

– ماذا يريدون؟

– طلبوا مني أن أتحدث معك بأسلوب لطيف جداً بإتجاه سحب المذكرة وترك هذا الموضوع نهائيا. والمذكرة، على حدّ تعبيرهم، لم تعد مذكرة، بل عريضة أو رسالة تحمل توقيعاً واحداً، فرجائي الأخوي منك هو أن تسحب المذكرة فترتاح أنت ونرتاح نحن أيضاً معك فلا قيل ولا قال.

– دكتور، أنا أشكرك جداً لكل ملاحظاتك. وقل لهم أني لن أسحب المذكرة، وأتحمل أي مسؤولية تترتب عليها.

قال المساعد بذهول كما لو انه أصيب بصدمة:

– دكتور، هل هذا هو قرارك الأخير؟

– نعم.

– ولكن، ألا تريد أن تعيد صياغتها؟ لاتنس أنها موجهة الى مجلس قيادة الثورة، فيها عبارات خطيرة جداً ستحاسب عليها.

– كل كلمة كتبت فيها درست دراسة تامة وانا مستعد لمناقشة كل عبارة.

قام الدكتور عبدالرزاق من مكانه متهيئاً للذهاب.

– دكتور، فكر جيداً، أنت الوحيد الذي بقي في الميدان.

– لا يا دكتور، لست الوحيد في الميدان، المذكرة يجب أن تقدم.

– حسنا، طالما أنك مصر على تقديمها فأرجو أخذها معك واستنساخها من جديد، لأن هناك تواقيع مشطوبة، فلا يمكن تقديم المذكرة بشكلها الحالي.

– هذه مشكلة فنية بسيطة، غداً سأعيد إليك النسخة الجديدة.

– هل تفكر في الأمر؟ أم أبلغهم بقرارك النهائي؟

– بلغهم بقراري النهائي مع تحياتي، ولا داعي للتأكيد على سحب المذكرة رجاء.

طوى الأوراق ووضعها في حقيبته وودع المساعد مصافحاً إيّاه. وقف المساعد ذاهلاً في مكانه وقد استغرق في تفكير عميق لم يستيقظ منه إلاّ بعد دخول السكرتيرة.

مصير الدكتور عبدالرزاق

بعد أن شخصاه جيدا، تركا المصعد واتجها الى الكافتريا. تناول كل منهما سندويجاً مع كوبي شاي بالحليب. كانت الكافتريا خالية إلاّ من سيدة في حوالي الأربعين، مربوعة القامة، تجلس في زاوية بعيدة عنهما. قال الأول وهو يمضغ قطعة من السندويج:

– هل عرفته جيدا؟

قال الثاني بثقة:

– استطيع أن أتعرف عليه بين ألف شخص.

بعد الإنتهاء من الأكل دخّن كل واحد منهما سيكارة روثمان، وطلب الأول كوبين آخرين من الشاي بدون حليب. كان الأول أطول من الثاني، يرتدي بدلة زرقاء فاتحة، شارباه ينحدران من الجانبين وتبدو عليه آثار النعمة. كان الثاني أسمراً داكنا، ينحدر شارباه بدون عناية، كثير الإلتفات، يرتدي ملابس بسيطة. كان الأول ينظر بين فنية وأخرى الى ساعته. وعندما قاربت الساعة الحادية عشرة، دفع الثمن ونهضا. تركا البناية الرئيسية الى ساحة دار الكتب، ومن هناك عرجا الى زقاق جانبي، حيث سيارة بيكاب بإنتظارهما. وتنفس السائق، الذي لفً رأسه بيشماغ، الصعداء حين رآهما. واتخذا مكانهما في الصدر. ونظر السائق الى الأول الذي جلس لصق الباب كما لو أنه ينتظر منه إشارة. أما هذا فكان مشغولاً بكيس نايلون، أخرج منه شالاً أبيض مع عقال أعطاهما لصاحبه. نزع رباطه وأخرج من الكيس شالاً أبيض آخر لف به رأسه بدون عقال، ثم التفت الى السائق قائلاً:

– در من هنا الى محطة البنزين.

– لا نحتاج الى بنزين، الخزان مملوء.

– أعرف يا رأس الجحش، إفعل ما أقوله لك.

عندما مرّوا ببوابة الرئاسة الرئيسية، قال السائق:

– هل أدخل محطة البنزين؟

– طبعا، ولكن حاول أن تقف عند المخرج بدون أن تعرقل السير.

توقفت السيارة في مكان يطل على الشارع العام. جاء الشرطي المكلف بحراسة المحطة وقال للسائق:

– أخي، ممنوع الوقوف هنا.

همس السائق في أذنة فانصرف. بعد حوالي عشر دقائق مرّت سيارة الدكتور عبدالرزاق. قال الأول:

– الحق.

وانطلقت السيارة بسرعة الى أن أصبحت وراء سيارة عبدالرزاق مباشرة:

– ابق وراءها، حذار أن تضيع علينا الموسكفيج.

قال السائق وهو يقود بإطمئنان:

– أنا أخوك.

واجتازوا الشوارع الضيّقة والمزدحمة الى أن بلغوا معسكر الغزلاني، حيث الطريق المؤدي الى حمام العليل. وعندما اجتازوا معمل الكبريت، علموا أنه في طريقه الى الكلية في حمام العليل، طلب الأول الى السائق أن يوقف السيارة بعد إخراجها لبضعة أمتار عن الشارع ثم ينزل وينشغل بالمحرك دون أن يطفئه. حين فعل السائق ذلك أخرج الأول من الكيس جهازاً يدوياً صغيرا، ضغط على زر قائلاً:

– هالو عين واحد، هالو عين واحد، هنا ميم أثنين.

وجاء الجواب:

– نعم ميم أثنين هنا عين واحد، أسمعك بوضوح.

– بعد دقائق يصلكم رفعت، أخبرونا عند الوصول، نهاية.

– سنخبركم فور وصوله، نهاية.

أخرج علبة الروثمان. سحب منها ثلاث سيكاير. قدم واحدة لصاحبه ثم صاح على السائق:

– أبو عطية، إذهب واجلس عند الشارع ولا تتحرك الى أن أنادي عليك.

– تأمر مولاي.

أشغل السيكارة وراح يمتص الدخان بقوة وتوجّه الى واد قريب:

– الى أين؟

– أتغوط ثم أذهب الى مكاني.

قال الثاني بعد أن ضحكا:

– لقد ذكّرني، يجب أن أتبول.

وبقي هو وحده في السيارة. كانت السماء زرقاء صافية تحجبها في الافق الغربي سلسلة غيوم

بيضاء ساكنة. وكانت الشمس الساطعة تمنع حقوق الحنطة والشعير الممتدة الى الافق البعيد لوناً أخضر قوياً وثمة بقع ملونة تطرز حواشيها أزهار الربيع التي تناثرت ضمن الحقول التي تتخللها صخور كلسية بيضاء متفرقة. ومن بعيد يشكل نهر دجلة قوساً حول قرية حمام العليل.
قبل أن يأتي على نهاية السيكارة، بدأ الجهاز بالبث:

– هالو ميم أثنين، هالو ميم أثنين، هنا عين واحد.

– نعم عين واحد هنا ميم أثنين، أسمعك بوضوح.

– رفعت وصل.

– أخبروا ميم واحد عند خروجه، نهاية.

ضغط على المنبه مرتين ثم أشار للسائق أن يأتي. قال الأول وهو يرمي عقب السيكارة من خلال النافذة:

– نحن الآن بلا عمل حتى الثامنة مساءً، والساعة الآن تشير الى الحادية عشرة والنصف.

قال الثاني ملتفتاً الى السائق:

– متى يكون الأكل جاهزا؟

أجاب السائق وهو يحتضن المقود:

– الخروف الآن انسلخ جلده وتم تقطيعه، يعني سيكون الأكل حوالي الثانية جاهزا.

علق الأول:

– وقت جيد.

– هيا إذن.

قالها الثاني وهو يشعل سيكارة أخرى. وانطلقت السيارة الى الطريق العام. بعد دقائق انعطفت الى طريق جانبي غير مبلط. واجتازت عدة مرتفعات ووديان. عندما بلغت الخيمة السوداء الكبيرة المنصوبة على أرض رملية منبسطة، توقف المحرك عن الحركة. وراح كلب كبير أبيض يهجم على السيارة بعوائه المتواصل، ولكنه مالبث أن وضع ذيله بين ساقيه وتراجع عندما نهره إعرابي خرج من الخيمة، وقد ألقى على كتفيه فروة سوداء. تبادل الإعرابي القُبل مع الاثنين، عدا السائق ثم قادهم الى الخيمة. كانت ثمة نساء مشغولات بالطبخ في الهواء الطلق.

قضوا نهارهم بشرب القهوة والتدخين والأكل والأحاديث المختلفة حتى الساعة الثامنة. وحين بدأ الظلام يلف كل شيء بالسواد، قال الأول وهو يناول الثاني بندقية رشاشة أخرجها من صندوق في السيارة:

– ستكون في تمام الساعة الثانية عشرة عند الممر الضيق تحت سكة القطار، هل المكان واضح؟

– لا داعي للتأكيد.

– سأسعل ثلاث مرات. كلمة السر: رايح للحمام؟ الجواب: لا، للزراعة.

ناول الأعرابي قطعة من السلاح ذاته مع كمية من العتاد وطلب منه أن يصطحبه، ثم التفت الى السائق:

– أنت تنتظرنا هنا، حذار أن تفترس اللحم كله.

– ألا يوجد هناك لحم؟

نظر اليه مفتعلاً الغضب:

– ألم أقل لك لاتطرح أي سؤال بحضوري يا رأس الجحش؟

في تمام الساعة الثانية ليلاً إلتقى الثلاثة عند الممر تحت سكة القطار. وساروا بمحاذاة سياج كلية الزراعة. كانت المصابيح التي تضيء السياج منطفئة على غير عادتها. وكانت الكلاب السائبة التي تقلق راحة منتسبي الكلية طيلة الليل، سبق ان أبيدت منذ عدة أيام وحارس بيوت الكلية يتمتع بالإجازة المرضية. كانوا قد تلثموا، فلم يبد من وجوههم سوى العيون. كان الأول يتقدمهم. اجتازوا السياج من ثغرة واسعة أحدثها المارة لإختصار الطريق. مروا بمحاداة مجموعة من أشجار الكالبتوس ثم انعطفوا الى شارع مظلم، ترتفع على جانبيه الأشجار العملاقة. وقف الأول وقال بصوت خافت:

– هذا هو البيت يفصلنا عنه الشارع فقط. أنا سأنزرع هنا. وبعد انتهاء العملية ستنسحبان الى الموضع. إنتبها جيدا. أنت (وجه كلامه الى الأعرابي) لا داعي أن تتلثم، تقف أمام الباب مباشرة بصورة اعتيادية وتخفي سلاحك تحت العباءة، فإذا خرجت زوجته تقول بكل هدوء: "مرحبا أم أحمد أنا ضيف، هل أبو أحمد بالبيت؟". وأما أنت فتلتصق بالجدار في الزاوية المظلمة وانت في حالة التأهب التام، منتظراً إيّاه، فإذا تأكدت إنه هو بالذات، تفرغ فيه صلية بكاملها. أما في حالة خروج زوجته وتأكيدها من البداية بأنه غير موجود فتدخلان البيت عنوة. هل هناك استفسار؟

قال الثاني:

– كل شيء واضح.

استفسر الأعرابي:

– وإذا لم يفتح أحد الباب؟

– ترجعان إلي، هذه الحالة لها خطة أخرى.

عبروا الطريق المبلط المظلم. كان ثمة مصباح ينير مقدمة البيت. وقف الثاني في الزاوية المظلمة، بينما ضغط الإعرابي على الجرس ووقف بفروته السوداء على مبعدة مترين من الباب، ولم يلبث أن أطل من ورائه عبدالرزاق نفسه وهو بملابس النوم. وبدا كما لو أنه يريد أن يكلم الإعرابي. ولما تأكد الثاني أنه هو هو بلحمه ودمه، مزقت سكون الليل صلية متواصلة انطلقت من فوهة بندقية رشاشة.

كانت النجوم تتلألأ في السماء الصافية العميقة. وأعقب الصدى صفير قادم من مكان بعيد، وعواء كلب صادر من مكان أبعد.

هموم الدكتور خليل

قال الدكتور خليل نفسه وهو يفكر في سيارة الرينو البيضاء التابعة للمنظمة الحزبية التي أوصلته الى الفندق: "دكتور، غدا في السابعة والنصف سأنتظرك أمام الباب..." وكرر العبارة مرة أخرى وهو يحدق في السقف ويستذكر ملامح السائق الذي أحس أنه أكثر من مجرد سائق سيارة. لقد أوصله الى غرفته، وعلم أنه يحمل مسدساً تحت سترته.

لم يصدق كل ذلك، بدا له أشبه بحلم جميل سرعان ما تلاشى... ماذا؟ هل أمتلك خاتم سليمان السحري؟ أم قلنسوة ألف ليلة وليلة السحرية التي اذا وضعها على رأسه اختفى عن أنظار الناس؟ أحس بإطمئنان وبأن شيئا ثقيلاً جاثماً على قلبه قد إنزاح. وان قدميه قد مسّتا الأرض بعد أن كانتا معلقتين في الهواء. هل حقاً أنه سيعيد جولاته في منطقة الغابات والدوسة وباب الطوب وباب الجديد بدون خوف؟ بدون أن يتعرض له أحد؟ وهل ستكف مكبرات الجوامع عن تهديده؟ يجب أن ينتظر يوم الجمعة القادم، فإذا سكتت المكبرات فعلاً عن ذكر اسمه، فالقضية إذن جدية وانهم يستطيعون صيانة حياته. وإذا تمكنوا أن يصونوا حياته، فإنهم سيستحقون احترامه وإخلاصه. وهل هناك ما هو أعز من الحياة؟ ها أنه لم يمض على حياته العملية أكثر من شهر ويرشح للقتل بدون أي سبب. هل أفنى زهرة شبابه في العلم والغربة حتى يموت بهذا السهولة وبهذا الشناعة دون أن يقدم خدمة لشعبه؟ هل في موته ما يخدم مصلحة الوطن العليا؟ إذا كانت المسألة كذلك فليقتلوه، وسيكون إذذاك معنى لموته. ولكن إذا قتل الآن بأيدي جهلة، لأنه قال في المحاضرة ما مثبت في المنهج المقرر، فما الذي يقال بعد موته؟ كافر، زنديق، ملحد، متهور... حتى أصدقاؤه المخلصون سيجدون ذلك حماقة منه لا أكثر. أما إذا تجاوز الموت، وها أنه قد بنى جسراً لذلك، فإن الوطن في كل الأحوال سيستفيد منه. ثم إذا انتقل من ضفة الى أخرى، يبقى هو هو. إنه لن يتغيّر، وستبقى أفكاره أيضاً هي هي، وسينقلها معه الى هناك. وطالما أن أفكاره هي الصحيحة والنامية فلابد أنها ستزدهر هناك وتنمو بسرعة فائقة. لم لا؟ أليسوا هم أيضاً أبناء هذا الوطن، ألا يوجد بينهم أناس كادحون؟ سيعمل بينهم وبيده صك الغفران. سيدافع هناك عن الحقيقة، ويناضل ضد الانتهازية وسيبدي نشاطاً متزايداً وسيصعد بسرعة وبإستحقاق.

نظر الى ساعته. كانت تشير الى الحادية عشرة والنصف مساءً، وتقلب في فراشه. كان الصمت المطبق يردد صدى أصوات تصدر من رأسه، هي أشبه بأصوات تصدر من رأس إنسان مصاب بالحمى. وشعر أن قواه قد خارت وانه متعب الى درجة الأعياء وبحاجة الى النوم، ولكنه لايستطيع أن ينام. أطفأ المصباح. ولف الظلام أرجاء الغرفة. ثمة رهبة تحيط بقلبه. بدد الضوء المنبعث من النافذة الظلام. وراح يحدق في السقف. تحول هذا الى بقعة بيضاء داخل محيط

الظلام. كان بياضاً حليبياً راح يتمدد الى مجرة لانهائية تطرزها ملايين النجوم المتلألئة. وكان ثمة جسم يتحرك بين النجوم أشبه بطبق طائر. كانت لولبية. وفجأة حط الطبق في مكان مجهول تحيط به أشجار من الدخام. وظهر رشودي المجنون بشعرهِ الأشعث وهو يرتدي ثوباً أبيض ناصعا، ويقول:

– رشودي جاء من كوكب آخر وواجبه هو صيانة كوكبكم الأرضي من الانفجار النووي، إذا حدث أن هجركم رشودي الى كوكب آخر، فالويل لكرتكم الأرضية. ستحرقون أنفسكم بأيديكم.

كان المكان يردد صدى رشودي من جميع الجهات. قال وهو يزحف أمام صخرة كبيرة ملساء تطل على هاوية لا قرار لها، وقف عليها رشودي:

– رشودي، نحن بحاجة اليك، إبق معنا رشودي، لاتتركنا، خذ بيدي رشودي، إني أكاد أسقط في الهاوية.

وقهقه رشودي، كانت الجبال تردد صدى قهقهته وهو يقول:

– خلاصك بيدك أنت وليس بيدي.

– ولكن رشودي، نحن بحاجة اليك، إبق معنا رشودي.

– سأفعل ذلك يا أستاذ من أجل الطيبين.

انحنى رشودي وراح يهمس في أذنه:

– ولكن أستاد، أنني تقيأت الباجة؟ لاشك أنك قمت بعمل مشين.

وتلاشى رشودي مثل روح هائمة. ولم يستطع أن يمسك بالصخور. كانت كلها ملساء فسقط في الهاوية.

وأحس أنه قد مات، ووضع في تابوت مرفوع على الأكتاف وأخذ الى مقبرة:

– إن أهل الزندقة والألحاد يجب أن يحاربوا بلا شفقة. وإنهم يجب أن يقتلوا، وقتلهم حلال، فلا شفيع لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

كانت الهتافات تصم الآذان... زنديق، كافر، زنديق، كافر، زنديق، كافر... وأحس بالاختناق داخل التابوت. حاول أن يتحرك، ولكنه لم يستطع، وجد نفسه مقمطاً بكفن، وانه لايستطيع الإتيان بأي حركة كما لو أنه أحكم وثاقه. ولايدري ما إذا كان قد نام في التابوت أم أنه مات مرة أخرى، بيد أنه رأى عبدالرزاق قد تحول الى عملاق كبير يطل عليه من مكان عال وهو يقهقه بسخرية ويقول مستهزئاً بصوت غريب يبعث على الرهبة والخوف:

– لا يا خليل، لا... لاتحاول أن تخرج من الكفن. لقد متَّ وانتهيت. هذا مكانك. إن الانسان يموت مرة واحدة.

واختفى في المجرة التي ظهرت فجأة، مخلفاً وراءه صدى قهقهته. وكاد الدكتور خليل أن يختنق. ونفذت الى أنفه رائحة جثته النتنة هو. واطلق صيحة. كان العرق يتصبب من جسده. ألقى بالغطاء بعيداً، وشرب جرعة ماء. كانت ساعته تشير الى الواحدة. ماذا؟ إنه لم ينم سوى ساعة واحدة فقط.

كان صدى صوت عبدالرزاق في الحلم لا يزال يرن في أذنه: لقد انتهيت يا خليل، هذا مكانك. أضاء المصباح، وتمدد في فراشه مشبكاً يديه تحت رأسه وهو يحدق في السقف... لقد انتهيت يا خليل.

الميلاد والموت، الظلام والنور، حتمية الميلاد وحتمية الموت... ماذا يعني كل ذلك بعد أن عشت تجربة الموت؟ لقد قرأت كثيراً، لماذا لم تسعفك قراءاتك في اللحظة الحاسمة؟ كنت أكثر ثورية من الآخرين. كنت دوماً على يسارهم لاتؤمن سوى بالثورة وكنت بارعاً جداً في الاستشهاد بالأمثلة التاريخية وبالحجج، ولكن مع ذلك وقعت بالمأزق. يجب أن ينام، ولكن كيف السبيل الى ذلك؟ ما أن يضع رأسه على الوسادة حتى تبدأ المسرحية من جديد. ولكنه لايريد أن يموت. ولماذا يجب أن يموت؟ أين هم أولئك الذين ماتوا؟ أين هي المعركة حتى يموت فيها؟ وهل يعتبر شهيداً إذا مات؟ هل يعتبر بطلا؟ هل يوضع اسمه في سجلات الخالدين؟ وحتى إذا أقاموا له تمثالاً في السراجخانه أو الدواسة بعد موته، فماذا يفيده ذلك؟ إنه ببساطة لايريد أن يموت. إنه يريد أن يخدم ولايهمه من أي موقع. سواء وقف على هذا الساحل أو على الساحل الآخر، فإنه سيخدم ويحمل الأفكار ذاتها. وما عليه سوى أن يدامي وضع الساحل الذي يقف عليه. أن يعرف كيف يمرر أفكاره التي توغلت في أعصابه وعظامه. إن كانوا يرحبون به على ساحلهم فمعنى ذلك أنهم ليسوا ضد إفكاره، وإذا كانت المكبرات قد طالبت بإفناء جسده الذي هو وعاء أفكاره، فكيف يستطيع هؤلاء الحفاظ على هذا الجسد؟ ماهي العلاقة بين هؤلاء وبين المكبرات؟ متى تفيدك إذن قراءاتك؟ هل قرأت من أجل القراءة فحسب؟ أم أنك أردت أن تستفيد من ذلك في سبيل هدف معين؟

لقد انتهى كل شيء... لايا خليل لا... لاتحاول أن تخرج من الكفن... لقد مت، انتهيت، هذا مكانك... يولد الإنسان مرة واحدة... يعيش الإنسان مرة واحدة... ويموت الإنسان مرة واحدة... لا، لايمكن للإنسان أن يموت عدة مرات. إنك مازلت مرشحاً للموت. وربما سيتسلل أحدهم الى غرفتك ويطعنك بمدية حادة قائلاً: "اللهم بشرني بالنعيم فقد قتلت كافرا... " كان يمكن لهذا الشيء أن يحدث إذا أصرت المكبرات على قتلك. أما إذا سكتت، وهذا ما يمكنك أن تعرفه يوم الجمعة القادم، فمعنى ذلك أن المسألة قد مرت بسلام. وكان هذا السكوت برداً وسلاماً عليك، ولكن، هل أصبحت مؤمناً جيداً بين عشية وضحاها؟ إذن، إنك قد نجوت من موت محقق للمرة الأولى. وحين يحدثك عبدالرزاق غداً وينظر اليك بتعال، لايمكنك إذذاك أن تنظر في عينيه. ها أنك تموت للمرة الثانية.

أجل، يولد الإنسان مرة واحدة، ولكن يموت البعض عدة مرات. إنك تفهم لماذا زارك عبدالرزاق في الحلم، ولكن كيف تفسر ظهور رشودي المجنون في الحلم؟. ولكن استاذ، هل تدري أنني تقيأت الباجة؟ لم هذا الاحتجاج؟ أنت الذي كلمت رشودي ودفعته الى التفكير العميق وكنت السبب في إغمائه وعودة الصرع اليه، لأنك ذكرته بأشياء طواها النسيان. ومهما يكن فأن للمجنون ذاكرة تحتاج الى تحريك معين كي تتفتق. لقد جئت الى أرضكم في يوم بارد من أيام شباط... أجل، لابد أنه كان مرشحا أيضاً للموت في أقبية قصر النهاية، ولكن إصابته بالجنون تحت التعذيب، أنقذت حياته، وهو بالنسبة للآخرين في عداد الموتى. وأفكاره؟ أفكاره التي كانت سبباً في جنونه، ماذا حل بها؟ ها أنك قد تجاوزت الآن ليس الموت حسب، بل الجنون ايضا. كم هي مساومة غرة. هذا الجنون الذي يوفق بين الحياة والموت. ومثلما هناك قيد شعرة بين الحياة والموت، كذلك ثمة قيد شعرة بين العقل والجنون. وهناك قيد شعرة بين الصمود والانهيار، بين الشجاعة والجبن وبين البطولة والهزيمة.

تذكر قول عبدالرزاق حين زاره في بيته: "المشكلة يا خليل هي ليست مشكلتك، المشكلة هي مشكلة الديمقراطية إن سلاحنا الوحيد في الوقت الحاضر هو الصمود أمام هؤلاء". كلا، إنك الآن إنسان آخر، لست خليل الأمس، لست خليل الأمس، لقد نزعت جلدك وارتديت جلداً آخر. الطقس على الساحل الآخر أو بالأحرى ساحلك الجديد الذي تقف عليه، يختلف، وكذلك الهواء. وعندما تتنفس الهواء الجديد الملوث، فإن دماءك وأعصابك كلها ستتغير. إن أفكارك التي تعتز بها، ستتلوث هناك شئت أم أبيت. أنت إذن انتهيت يا خليل، ولكن على أي حال إنك تجاوزت الموت والجنون، فليكن ما يكون.

هموم الدكتور صالح

تعمد الدكتور صالح التأخر في الذهاب الى الدكتور خليل رئيس القسم. وبعد أن طلب كوباً من الشاي، أشعل سيكارة أخرى وراح يفكر بجد في وضع حل نهائي لهذه المشكلة التي وجدها استفزازاً وقحاً لم يسبق له أن قوبل بمثله.

مهدي وجبار قد انتهيا، والآخرون؟ أين هم الآن؟ أنت لاتعرف شيئاً عن مصيرهم. الجريدة لاتصلك منذ ثلاثة أسابيع. هل ألقي القبض على أبي صلاح؟ هذا الذي كان يلقي لك بالجريدة من خلال قضبان الباب الخارجي في جنح الظلام؟ ولكنني أخشى عليك يا دكتور صالح... حسم الأمر مع المستقلين. إنها ليست مجرد إشاعة إذن. كل من يعمل في سلك التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي يجب أن ينتمي الى الحزب القائد، وإلاَ فلا مجال له في هذه المؤسسات. هل من المعقول أن ينتمي كافة العاملين في التعليم الى الحزب؟... بالأمس أصبح الجيش والقوات المسلحة محرماً على غير البعثيين، هذه مسألة يمكن فهمها وتبريرها، التعليم؟ ولكن التعليم؟ كيف يمكن صهره في بوتقة واحدة؟ والذي يرفض الانتماء، ماذا سيكون مصيره؟ أليست هناك استثناءات؟

طبعاً هناك إستثناءات، قال ذلك صديقه مصطفى الذي عمل لأكثر من عشرين عاماً في صفوف البعث، حيث جمد نشاطه لأسباب لايعرفها.

– كل من يشتبه به كشيوعي أو إسلامي أو بارتي أو صديق لهم، لا خيار له.

إما أن يوقع أو...

– أو ماذا؟

– أو يسلخ جلده.

– ضعها في جيبك.

– لقد سألتك عن الاستثناءات، الاستثناءات.

– البعثي القديم الذي ترك الحزب في أوقات وأسباب مختلفة.

يظهر أن الحزب القديم يشكل خطرا على الحزب الجديد، وإذا أصررت على عدم الانتماء؟

– ولكنني أخشى عليك يا دكتور صالح.

صالح، هل هذه النهاية هي التي ولدت من أجلها؟ هل تكون هذه نهايتك حقا؟ وإذا إنزلقت قدماك ووقعت في المستنقع، ومسحت عشرين عاماً من الأحداث التي هي أعز ما تملكه وتفتخر

به، فكيف ترفع إذذاك رأسك أمام أصدقائك الذين لم يتلوثوا؟ طلابك الذين ينظرون اليك بإحترام وهيبة، ماذاسيقولون عنك؟ والسنتان اللتان قضيتهما وراء القضبان، هل تذهبان أدراج الرياح؟ كفاحك مع الأنصار وسنوات التشرد؟ هل تستغني عن ماضيك الذي صنعته يوماً بعد يوم بدمك وأعصابك وآلامك وتشردك وصمتك؟ إنك ستتخلى عنه ويتخلى هو أيضاً عنك في لحظة واحدة فتنتقل من ضفة الى آخرى، من ساحل الى آخر، من مرتفع الى منخفض، من نهر صاف الى مستنقع، من حقل وردٍ الى صحراء صبير ومن كرامةٍ الى ذل. كل ذلك من أجل الاحتفاظ بلقب مدرس جامعي مهان.

– ولكنني أخشى عليك دكتور صالح... ألهذه الدرجة من الانحطاط تبلغ الأمور؟ أين هي قدسية العلم والحرم الجامعي؟ ترى هل ثمة جامعة في مكان آخر من العالم تسود فيها مثل هذه الأخلاق؟ هل يستحق هذا المكان اسم جامعة؟ أم أنه مبغى لعصابة تدعي العلم؟

مهدي وجبار قد انتهيا... ترى هل اعترفا بكل شيء؟ هل يكذب عليك جبار؟ ألم يؤكد مرتين في رسالته التي أرسلها بيد زوجته، بأن أي واحد منهما لم يذكر اسمك؟ كلا، إن مهدي وجبار لايكذبان، والا فلماذا لم يلقوا عليك القبض بعد؟ هب أنهما لم يعترفا عليك، فهل من المعقول أن الآخرين قد اختفوا جميعا؟ وسكرتير منظمتك الذي استقال من الحزب قبل موجة الاعتقالات بأشهر؟ هل من المعقول أنه سيصون كافة الأسرار التي يعرفها؟ كم أنت مقطوع عن العالم. إن السمكة لاتستطيع العيش خارج الماء ولا الانسان يستطيع العيش خارج محيط الهواء. وانت الذي لاتستطيع العيش خارج جزيرتك، كيف بك إذن العيش داخل جزيرة أخرى؟ جزيرة يضمونك اليها بالقوة. هل بإمكان إنسان اعتاد العيش في الأرض أن يعيش في كوكب آخر؟ إنك ستختنق هناك وتموت في الغربة، لا القطا تستطيع العيش في القطب ولا البطريق يستطيع العيش في الصحراء، ولكن يبدو أن كل شيء ممكن في هذا الزمن اللعين، زمن اللصوص وقطاع الطريق والمهربين والقتلة الذي تركوا قراهم وانتقلوا الى بغداد ليشتغلوا بالسياسة وليعيدوا حرقها مرة أخرى. ولكن ما العمل، منذ سنتين وانت تدعي الاستقلالية. لم يبق أحد في القسم لم يفاتحك بخصوص الانتماء، ولكنك كنت ترفض دوماً وبحزم. وأما الآن فإن الدكتور خليل الذي تسلم منذ ستة أشهر منصب مساعد رئس الجامعة للشؤون الثقافية، ويأتي في الأسبوع الى الكلية ليدير القسم، هو الذي سيفاتحك بالأمر هذه المرة. إنه يحترمك أكثر من أي استاذ آخر. وكانت مواقفكما منسجمة، إلا في بعض القضايا الطفيفة. ترى، هل هو يدللك حتى يكسبك لينال شكراً وترقية؟ أم أنه يحن الى ماضيه ويطمح في نفس الوقت في ترقية جديدة. الجذور لاتنقطع بسهولة دائما، بدليل أنه لم يزل محتفظاً بطيبته ونقائه. ولكن، حذار أن توقعك هذه الطيبة في الفخ، فالمباديء شيء والعواطف شيء آخر. لماذا لم يفاتحك من قبل؟ كيف ستواجه الآن؟ أتقول له كعهدك دائما: كلا؟...

كيف سيكون النقاش بينكما؟ أنتما اللذان لم تختلفا في المناقشات والسمنارات والندوات العلمية منذ سنتين ونصف السنة؟ كان يأخذ بآرائك وملاحظاتك دوما. لاشك أنه كان سيظل لايفاتحك في هذا الموضوع لوأنهم لم يكلفوهُ بذلك، وإلاّ فلماذا لم يفاتحك طيلة هذه المدة كلها؟ وإذا قلت له: كلا... فهل يمر كل شيء بسلام؟ ومن الذي سيتسلمك بعد رفضك أمامه؟ الاستاذ عزالدين الذي يرفض مثلك. والذي كان حقاً إنساناً مستقلا، استدعي الى الأمن. هذا ما وصلك عن طريق الهمسات. وعندما خرج من أقبية الأمن، كان قد أصبح إنساناً آخر، إنساناً منتمياً رغماً عنه. ولكن ما الذي فعلوه به هناك؟ إن الهمسات تتحول الى صمت حين يبلغ السؤال هذا الحد. وأما حقيقة كونه قد منح إجازة مرضية لمدة أسبوعين بعد خروجه من هناك، فلا يمكن مسحها من ملفَه في أدراج الكلية. وبعد انتهاء فترة الإجازة المرضية منحه العميد من جيبه أسبوعين آخرين. أربعة أسابيع إذن كافية لإزالة أي بقعة زرقاء من الوجه مهما كانت داكنة.

الدكتور خليل إذن هو العلامة الهادية على مفترق طريقين، إنه يريك الطريق فحسب. بقي أن تختار أنت أحد الطريقين اللذين لا ثالث لهما. وأما الطريق الوهمي الثالث الذي كنت تتصوره في ذهنك وتخدع به الآخرين، فقد تلاشى عند مفترق الطريقين. والآن آن الأوان كي تفكر جدياً في أمرك. لاتكن غبياً وساذجا. إنهم يعرفون كل شيء عنك. هذه المرة يجب أن تحسم الأشياء بشكل آخر.

الأمان

عندما وقف الدكتور خليل ليحدق في وجهه المتعب، لمح سترته الجلدية الملقاة بإهمال على الكرسي. كانت صور الأمس والليلة الماضية تتداخل في رأسه دون أن يستطيع التفريق بين الأحلام والحقائق. وشعر أن نومه كان مضطرباً جداً، وانه بحاجة الى قهوة قوية لتعيد توازن تفكيره. غسل رأسه بالماء البارد وتذكر أنه على موعد مع السائق وانه سيصل الى الكلية اليوم بسلامة. ترى هل أنه سيأتي حقا؟ ونظر الى ساعته. كانت تشير الى السابعة والربع. إرتدى ملابسه بسرعة وترك الغرفة. وعندما مرَّ بإدارة الفندق، توقف كما لو أنه تذكَر شيئاً وقال:

– أبو أحمد، سأبقى عندكم أيام أخرى، أو ربما عدة أسابيع أخرى. الشقة التي حصلت عليها غير جاهزة للسكن. إنها بحاجة الى بعض الترميمات.

– دكتور، الفندق فندقكم، استريحوا اشربوا معي استكان شاي.

– قال بسرعة ناظراً الى ساعته:

– شكرا أبو أحمد، يجب أن ألحق بالدوام.

وهبط السلم بسرعة. كان السائق مشغولاً بمسح الزجاج الأمامي، وحين إنتبه للدكتور، حيّاه وهم بفتح الباب الخلفي، بيد أن الدكتور خليل فتح الباب الأمامي بنفسه قائلاً:

– حجي، أنا لست مديراً عاماً كي أجلس في الخلف، أنا صديقك.

واتخذ مكانه جنب السائق. قال هذا وهو يشغل المحرك:

– دكتور، أصابع اليد الواحدة ليست سوية. هناك من هو طيب أصلاً.

وانطلقت السيارة بخفة. أدرك أنه بحاجة الى هذا الانسان. واقتنع في قرارة نفسه أن واجب هذا السائق ليس فقط إيصاله الى الفندق وبالعكس، بل أنه يحميه أيضاً.ولا شك أن هناك سيارة آخرى تحرس هذه السيارة، أو ربما أن الرقم ولونه الخاص وتسلسله، كل ذلك هو الكفيل بصيانه السيارة من كل أذى، أجل ذلك هو إذن خاتم سليمان السحري أو طاقية الخناس التي تحمي السيارة عن الأشرار، والا فلماذا يفسح لها شرطي المرور الطريق ويعطيها حق الأسبقية. لماذا لاتتسابق معها السيارات الأخرى؟ لماذا يحيي بعض المدنيين وأفراد الشرطة السائق بأدب؟

وتبددت بقايا مخاوفه، لا... لا... إن أي شرير مهما كان وقحا، لا يستطيع أن يبدي أقل أذى تجاه هذه السيارة التي تحرسها الطلاسم السحرية. والأشرار مهما كانت شجاعتهم فهم ليسوا أغبياء. إنهم يعرفون جيداً أين يكمن الخطر، ويعرفون جيداً من أي جحر يلدغ الإنسان. فإنهم لايمدون

أصابعهم الى كل جحر. ها أنه يدخل اليوم الثالث من التهديد، ولم تظهر أي بادرة تؤشر الى النوايا السيئة. وبعث الاطمئنان النشوة في أوصاله. وزاد حبه لهذا الإنسان الطيب الجالس خضوع الى جانبه. التفت السائق إليه قائلا، كما لو أنه تذكر شيئا:

– دكتور، لماذا تسكن في الفندق؟

– بحثت عن شقة مناسبة صغيرة بلا جدوى، وإيجارات البيوت كما تعلم ليست زهيدة.

قال السائق بلهجة الواثق من كلامه:

– هناك بيوت محترمة تابعة للجامعة، رخيصة جدا، أرخص بكثير مما تدفع أنت للفندق.

– ولكن المتزوجين أحق مني.

– لا يا دكتور، أنت أحق منهم. أنت مهدد من قبل الرجعية. إن رجعية هذه المدينة خطرة جدا، أنا سأذكّر الاستاذ سالم بذلك.

وبعد هنيهة سكوت، أضاف:

– أعتقد أنه يستطيع أن يدبر لك بيتاً من البيوت القريبة من الجامعة.

مرت برأسه صور مشتتة، وكرر في نفسه: إنهم ليسوا مهددين مثلك من قبل الرجعية. الخطر إذن مازال قائما. ورنت في أذنه أصوات المكبرات. وتذكر أحلام الليلة الماضية، وجه رشودي، وجه عبدالرزاق... لا يا خليل، لا، لاتحاول ان تخرج من الكفن... لقد مت، انتهيت، هذا مكانك... إنه يريد أن يتوسط لك حتى تحصل على سكن.كان تقديرك صائبا. ألم تقل إنه أكثر من سائق؟ ألم تقل أنه حاميك؟ لا بل أنه أكثر من ذلك. لاشك أنه من الأعضاء القدماء الذين خاضوا المعارك الكثيرة أو من العناصر الصدامية التي تقتحم المخاطر. وقد كُلف الآن بمهمات حزبية دقيقة وحساسة يسترها بهذه المهنة الظاهرية. كل شيء ممكن في عالم الأحزاب. علق الدكتور خليل كما لو أنه يتحدث مع نفسه:

– فكر حسنة لم تخطر ببالي أبدا.

قال السائق وهو يسيطر بكل هدوء:

– دكتور، هذا حقك، يجب أن تحصل على أحد بيوت الجامعة. وتبقى تستقر عندنا في الموصل. إن العُذاب الذي قدموا الينا، تزوجوا واستقروا هنا.

إرتاح الدكتور خليل للكلام قائلاً:

– كل شيء قسمة ونصيب.

في الساعة الثامنة إلاّ ثلثاً وقفت السيارة أمام مبنى الكلية. قال الدكتور خليل وهو يهم

بالخروج من السيارة:

– تفضل حجي، تناول معي أكلة خفيفة.

قال دون أن يطفيء المحرك:

– شكرا دكتور، واصل، يجب أن أنجز بعض الأعمال الأخرى.

واسرع الى الكافتريا. بعد أن أفرغ القهوة المرة في جوفه، عاد الصفاء الى رأسه المضطرب. وتلاشى الثقل الجاثم جبهته. ولأول مرة بعد الامتناع عن أكل الباجة، يأكل بشهية طيبة. وفكر في بيوت الجامعة القريبة. كانت الكافتريا خالية، إلاّ من استاذ مصري كبير السن ومدرسين هنديين شابين يتحدثان بصوت عال ويتناولان حساء العدس المشبع بالتوابل الحادة. قبل أن ينتهي من تناول سندويج البيض، دخل أحد زملائه. حياه ببرود متخذاً مكانه الى جانبه، وقال بتهكم:

– هل رأيت؟ لقد عادت حليمة الى عادتها القديمة.

سكت صاحبه هنيهه كما لو أنه يفكر في شيء ثم واصل:

– الياس، فنجان قهوة رجاء... أنظر خليل، لقد قررت أن لا أدخل اليوم أي محاضرة، فليفعلوا ما يشاؤون.

رفع خليل رأسه، ناظرا اليه بإستغراب، قال وهو يمضغ اللقمة:

– ماذا حصل؟

قال بإستنكار:

– يظهر أن المسألة لاتهمك؟

– أي مسألة؟

– مسألة أغتيال الدكتور عبدالرزاق.

توقف خليل عن المضغ واتكأ على مسند الأريكة قائلاً بذهول:

– ماذا تقول؟ غير معقول.

قال بغضب وتوتر:

– لقد اغتالوه، جبناء، ومات رجلاً. وأما نحن الجبناء الذين سحبنا تواقيعنا، فبقينا على قيد الحياة، تفو على هذه الحياة.

قال خليل كالمأخوذ وقد عاد الاضطراب مرة أخرى الى قلبه، وأحس بحرقة تلهب معدته:

– غير معقول، غير معقول.

– اليد التي تتلطخ بالدم مرة واحدة، لايمكن أن تكف عن الإجرام، لا علاج لهؤلاء.

قال خليل بصوت كسير محطم:

– محمود، لاترفع صوتك.

– لقد خذلناه كأي عاهرة، إلى متى نظلّ لانرفع أصواتنا؟

دخل زميل آخر ينتمي الى شلّة العزاب الساكنين في الفنادق الرخيصة، وبعد أن حياهما، وقف أمامهما يحدق بتهكم وأسى في ملامح وجه خليل ويداه في جيبي بنطلونه. نظر إليه محمود للحظات مستغرباً من وقفته:

– نخلة مزروعة؟ ما هذه الوقفة؟

لم يتكلم، بل ظل مركزاً نظراته في وجه خليل الذي سرعان ما أدرك سبب هذه الوقفة الإنتقادية، قال وكأنه يمثل:

– حتى أنت يا بروتوس؟ كنت أتوقع كل شيء، أما هذه الفعلة فلا.

أجال محمود نظراته بين وجهيهما وقال مداعبا:

– أخشى، أن الطلبة قد شاهدوك في الملهى.

نظر خليل الى الأرض بخجل.

– ليته ذهب الى الملهى، ليته شوهد في المبغى، ليته نام سكيراً على الرصيف ولم يفعل هذه الفعلة.

قال محمود حائرا:

– ألا تقل لي يا محسن ما هي جريمته؟

أخرج محسن يديه من جيبي بنطاله وراح يطمغ بإبهامه الأيمن على باطن كفه الأيسر، قائلاً بسخرية ممزوجة بألم:

– أخونا وقّع. ومنذ يوم أمس تنقله سيارة المنظمة الحزبية، تهانينا دكتور خليل.

شرب قهوته واقفا، وأطبق عليهم الصمت. قال محمود بلهجة كسيرة خائبة:

– لا يا دكتور خليل، كان ينبغي أن لاتنزلق بهذه الصورة.

لا يا خليل، لا تحاول أن تخرج من الكفن، لقد مُتَ. يولد الانسان مرة واحدة ويعيش مرة واحدة، ولكن كم مرة يموت هو في اليوم؟ محمود وقّع على المذكرة ثم سحب توقيعه ورفض أن ينتمي

الى الحزب رغم الإغراءات الكثيرة، وأما أنت، فوقعت على المذكرة ثم سحبت توقيعك لتذيل به الانتماء الى الحزب، فبنيت بذلك جسراً تجاوزت به الموت، وحين تركت توقيع عبدالرزاق لوحده، نسفت كل الجسور التي تربط عبدالرزاق بالحياة، فأصبح لقمة سائغة للموت الذي هبط عليه في جنح الظلام. من المسؤول عن اغتيال عبدالرزاق يا ترى؟

قال محسن وهو يتركهما:

– دكتور خليل، لقد عبرت الجسر، أمنت على حياتك، وغداً ستكون رئيساً للقسم أو عميداً أورئيساً للجامعة، من يدري، لعلك ستكون سفيراً أو وزيرا، ولكن لاتنسانا يا دكتور.

صيف ١٩٧٦/ التعيين

في شهر تموز تصل درجة الحرارة في بغداد عادة الى الخمسين، بيد أن نشرة الأنواء الجوية اعتادت أن تنقص منها درجة أو درجتين. ونادراً ما يحس بذلك رجل الشارع الذي يلهيه الحر الشديد عن أي شيء آخر.

وهاهو قد ترك وراءهُ ٤٠٠ كيلومتر جنوبا، دون أن يحس بأي اختلاف في الطقس. القيظ اللعين ذاته يلهب كل شيء. الجدران البيضاء والأسفلت الرمادي وأشجار الكالبتوس الكئيبة والسماء الزرقاء الضبابية كلها تستقبل الحرارة بخمول ثم تنفضها لتعطي ضوء الشمس اللامعة أضعافاً من النور الساطع. كانت ساعته تؤشر الى الثانية بعد الظهر حين لفظت سيارة المرسيدس القديمة الركاب من جوفها الملتهب كالتنور في باب الطوب. كان العرق المترشح من جميع أنحاء جسمه قد بلل ملابسه الداخلية وبنطاله. وقف يتأمل حواليه، وأحس أنه يدخل المدينة لأول مرة، رغم أنه سبق أن زارها قبل أعوام طويلة. كان ذلك فيما مضى، أما الآن فهو في عام ١٩٧٦. لقد تغيَّرت الأشيَاء. فكر فيما يفعله الآن. هل يستقل تاكسي ويذهب الى رئاسة الجامعة لتقديم أوراق تعيينه التي جلبها بيده من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي؟، لا، إن الدوام قد أشرف على الانتهاء. وأي موظف هو ذلك الذي يمكن التحدث معه في مثل هذا الجحيم الحارق؟ مع من يقضي نهاره وليلته هذا اليوم؟ الشخص الوحيد الذي يعرفه في هذا المدينة هو صديقه الدكتور مهدي. وتمكن بعد الاستفسار أن يعثر على موقف سيارات حمام العليل. كانت سيارة الشوفرليت التي تبكي ماضيها الغابر تحتاج الى مسافر واحد حتى تتحرك. وحين اكتمل النصاب. راحت تهتز كما لو أنها تكاد تتفكك.

رغم الحر الشديد، شعر بنوع من الإرتياح، جديد، ارتياح من يبدأ مرحلة جديدة من الحياة، مليئة بالواجبات والمسؤوليات. إنه لم يعد طالباً وحياة الغربة قد إنتهت الى الأبد. الهواء الذي يتنفسه الآن ليس هواءً غريبا، والسماء، سماؤه هو، وهذا الغيظ مابـاله لا يتحملهُ؟ أليس هو نفس الغيظ الذي مسَّ جسده الناعم لأول مرة في حياته؟ ألم يترعرع وينشأ في هذا القيظ الذي كان فيما مضي شيئاً طبيعياً لا يختلف عن أي شيء آخر؟ العرق لازال يبلل ملابسه الداخلية متسرباً الى بنطاله. وراح يستطلع من نافذة السيارة بفضول الى الشوارع والمخازن والناس. وكانت تبدو له أشعة الشمس، رغم حرارتها، جميلة رائعة. كل شيء أبيض فاتح غارق في سديم من الضوء الشمسي. تذكَّر بوابة شمش التي ترتفع على جانبيها أسوار نينوى. وعندما اقتربت منها السيارة تصور أنه يدخل مدينة من مدن الأساطير، أو أنه خرق حاجب الزمن راجعاً بقوة سحرية الى الماضي الغابر لزيارة المدينة الآشورية. أجل، إنهم رغم النار اللافحة التي تبعثها الشمس لم

يتذمروا منها، بل عبدوها. ولعلهم كانوا على قناعة تامة أنه لولا هذا القرص الذهبي الذي يزين السماء كل يوم، لإستحال الوجود في الأرض.

عندما تركت السيارة المدينة باتجاه حمام العليل، عادت به ذكرياته الى الوراء. كان في السابعة من عمره عندما زار مع والديه حمام العليل، تذكر أنهم أجروا غرفة صغيرة لعدة أيام للتمتع بالمياه المعدنية، ربما كان والده يعاني من آلام الروماتزم. إنه يتذكر ذلك كأي حلم قديم تلاشت معالمه. حتى زيارته الى الموصل قبل أعوام قد تحولت الى حلم غير واضح المعالم.

ها هي قرية حمام العليل. إنهم يسمونها الآن قرية. وكان هو يتصورها في صغره مدينة. وهل من الضرورة أن تكون كل مدينة كبيرة؟ إنها مدينة صغيرة. ألم تكن فيها إذذاك شوارع مبلطة، كهرباء، دكاكين، شبكة إسالة الماء، مدرسة ومستوصف؟ إن هؤلاء الذين يسمونها الآن قرية، لم يروا القرية الحقيقية إذن. القرية التي يسكن فيها أعمامه هي حقيقية. البيوت ليست سوى أكواخ طينية. الدرابين والأزقة غير مبلطة. كلها تراب ومزابل ومياه آسنة. ليست ثمة دكاكين أو مستوصف أو مدرسة أو حتى مقهى. وعندما يحتاج الفلاح الى شيء من السكر والشاي، فعليه أن يمتطي حماره ويقطع خمسة كيلومترات الى المدينة القريبة التي هي ليست بأفضل من هذه المدينة الصغيرة التي يسمونها قرية. إنه لأحساس غريب حقا، حين يتبلور الحلم وتتكامل معالمه ويبدأ بالتجسد، بحيث يمكن للإنسان أن يلمسه. ها هو حمام العليل الحلم يتحول الى حمام العليل الواقع. لو أن والده الآن يستيقظ من رقدته الأبدية، ويغادر قبره لدقائق، ليرهُ وقد جاء الى هنا. إنه لم يعد ذلك الطفل الخجول الصامت. راح يتأمل البيوت والدكاكين الهرمة التي لفّتها الشمس، إنها حقاً قرية. كنت إذذاك طفلا، كان عالمك هو المدينة الصغيرة التي ولدت فيها. وقرية أعمامك الراقدة على سفح جبل شاهق والتي كنت تقضي فيها عطلاتك المدرسية. كانت أفراحك الحقيقية هي ركوب الحمير والخيل والجرجر وصيد العصافير والحمام والبحث عن أعشاش القطا. كنت تعتقد أن بغداد ألف ليلة وليلة، إنما هي مدينة يلفها الضباب، شوارعها من مرمر وبيوتها قصور تحيط بها الرياض، ولايمكن الوصول اليها بسهولة. كان ذلك بمثابة حلم من أحلامك الكثيرة والعجيبة التي كانت تشدك دوماً الى النوم. كم نجمة زارتك في غرفتك؟ وكم من مرة سبحت بين النجوم تبحث عن أسرارها؟ حتى الله (تعالى) حلمت به وهو يريك وجهه النوراني. وحلمت بالنبي وبعلي وانت تسأله بفضول عن سبب تفرد سيفه بحدين. وتبقى أسئلتك الكثيرة معلقة في الفضاء لايجيبك عليها أحد. وكان فضولك يزداد يوماً بعد يوم.

واتخذ طريقه عبر الشارع الممتد الى الكلية كما لو أنه يسير في الحلم، غير عابيء بالحر.العودة الى الوطن بعد الغربة ميلاد جديد، والتعود على معالم الوطن، التي طواها الزمن، يكفله الزمن نفسه، ولكن بعد وقت قصير. وبعد خطوات من إجتيازه السكة الحديدية اجتاز بوابة الكلية متجهاً

الى مكتب الاستعلامات. ثمة لافتة كتب عليها: الجامعة حرم آمن لايجوز دخول غير المنتسبين اليها، ووصف له المسؤول كيفية الوصول الى بيت الدكتور مهدي.

عادة النوم بعد الظهر بدت له غريبة. لاشك أنه أزعج الجميع حين أيقظهم من النوم. كانت المفاجأة كبيرة جدا. ها أنهما يلتقيان بعد فراق دام سنوات طويلة. وتعانقا بقوة وهما لايصدقان المفاجأة السارة. قال مهدي بمرحه المعهود:

- سنسكر اليوم حتى الثمالة.

كان الجو لطيفاً ومنعشا في الداخل. أكلا وشربا الشاي وتحدثا بدون إنقطاع. وراح مهدي يلقي ما في جعبته من الكلام كعادته، والذي لم يكن جديداً بالنسبة الى صالح:

- الوضع السياسي جيد بشكل عام... هناك بعض السلبيات من جانب الحزب الحليف... بعض العناصر الرجعية واليمينية هي التي تعرقل مسيرة الجبهة... الجبهة يجب أن تتعمق وتنزل الى الجماهير... هناك تحرك يميني... مدينة الموصل بشكل عام مدينة معقدة، عناصر يمينية واقطاعية،... يقال أن أجهزة الأمن شنت حملة إعتقالات في البصرة...

- لا... لا... لن تذهب، ستقضي ليلتك عندنا. وغدا سآخذك بسيارتي الى الموصل وننهي معاملاتك كلها. إنك لاتستطيع إنجاها لوحدك.

كانت زوجته قد طبخت دولمة، وعندما إنتهيا من الأكل في السابعة مساءً، ذهبا الى الكلية. وهناك قدمه لأصدقائه الذين سرعان ما انسجموا معه وراحوا يلتهون بشرب البيرة ولعب الورق حتى منتصف الليل.

•••

قالت الموظفة القصيرة السمينة من وراء مكتبها مبتسمة بدلال:

- دكتور صالح، هذا هو كتاب مباشرتك، لاتنس تأريخ ١٩٧٦/١٠/٣. وأما تأريخ تعيينك فهو ١٩٧٦/٦/٣٠. لاتخلط بين التأريخين، إنهما مثل تأريخ الميلاد، ستحتاجهما لملء عدة استمارات سنويا. وأرجو أن تجلب نسختين من تصويرك للهوية.

قال وهو يتسلم الأوراق:

- شكرا جزيلا ست نادية، غدا في مثل الوقت سأجلب لك الصورتين.

وخرج يتمشى في أرجاء الكلية. جو جديد، لازال يجد نفسه غريباً فيه. بدا له كما لو أنه أجنبي في بلد غريب، رغم أن هذا الشعور في السنوات الأخيرة من وجوده في الخارج قد زال تقريبا. وها أنه يعيد تماسه مع الوطن الذي تغيّرت فيه أشياء كثيرة خلال غربته الطويلة. العيون تتطلع اليه بفضول. عيون الطالبات والطلبة. العيون السوداء الواسعة والعميقة هي ليست تلك العيون

الخضراء أو الزرق أو العسلية الفاتحة الهادئة، إنها قوية، نفاذه، مشعة، حادة، وجنسية فيها غموض وأسرار. وجوه من البصرة، الرمادي، كركوك، أربيل، السليمانية... العراق كله هنا... العراق، بواديه الطويل، بدجلته وفراته، بكل روافده، بكردستانه وأهواره، بآشوره، وبابله، بغناه وفقره بقصوره وأكواخه، بفضيلته ورجسه، برماله وثلوجه، بسهوله وجباله، بمساجده وكنائسه، بملاهيه وأديرته، بماء ورده وعرقه المغشوش، بنخيله وصنوبره، بإنتصاراته وهزائمه، بشجاعته وجبنه، بإبائه وغدره، بصدقه وكذبه، بأنبيائه ودجّاليه، بكرّه وفرّه، بروائح نفطه ومستنقعاته، بصمته وثرثرته، بتواضعه وغروره، بكبريائه وخسته، بإلحاده وإيمانه، إنه بكل ملامحه تلك قابع هنا بين جدران هذه الكلية.

منتسب جديد، ولكنك بين قوسين وحولك أكثر من علامة استفهام. ستكون حياتك هنا غير سهلة. الألغام تحيط بك من كل الجهات. لو لم تمر من منافذ المصفاة وتترشح من خلال المرشحة، ستظل اسماً قائماً بين قوسين تحيط بك علامات الإستفهام من كل الجهات. هنا لايمكنك أن تنسج حواليك شبكة من المؤيدين. إنهم منتمون بأشكال مختلفة، وإلا لم وجدوا طريقهم الى هذا المكان. ولاشك أنهم حين عيّنوك هنا، إنما اعتقاداً منهم أنهم سيجرونك الى جانبهم ببساطة.

هذا هي صورة الرئيس، وهو ينظر ببلاده من وراء الزجاج، من الذي وضعه هناك على قمة الهرم؟ وصاحبه، هذا الذي ينظر بحقد، بعينين دمويتين وبغرور همجي؟ هنا في هذا الجو المشبع بالروائح النتنة يجب أن ينقضي العمر. وهل سينقضي عمره حقاً هنا؟ لابد أن يتأقلم مع هذا الوسط.

العيش مع الأعداء أصعب من النضال السري. ستعتاد أنت أيضاً على هذا الجو الذي قذفتك الرياح فيه، مثلما قذفت الأمواج روبنسن كروزو في تلك الجزيرة المجهولة. ولكن روبنسون استطاع أن يعثر على صديق سماه جمعة. وانت، هل تعثر على صديق هنا؟ وماذا تسميه؟ شعر بالإختناق، بيد تعصر قلبه. أما كان بمقدور ربان سفينة روبنسون أن ينقذ السفينة؟ هل كان من الضروري أن تتحطم في اللحظة الأخيرة على صخور الساحل؟

والتقت عيناه بالصورتين مرة أخرى. وتذكر الصورتين اللتين كانتا لاتفترقان أيضاً عندما كان صغيراً: صاحب الجلالة الملك المفدى فيصل الثاني المعظم ملك العراق وصاحب السمو الملكي الأمير عبدالإله ولي العهد. وعندما خرج الناس في مدينته الصغيرة في صبيحة يوم الثورة وهم يهتفون بحياة الثورة، ركض هو أيضاً مع زمرة من أصدقائه الى مقهى ووضعوا كرسياً على منضدة وصعد أحدهم ينزل الصورتين. وصاح صاحب المقهى أن لايكسروا الزجاج والإطار، فأجابوا وهم يحطمون الصورتين:

– الصورتان يجب أن تتحطما مع الزجاج والإطار يا عمي شهباز. أنت تريد أن تضع صورة قائد الثورة في نفس الأطار، لا يا عمي هذا لايجوز.

سمع بعض الطالبات يتهامسن فيما بينهن وينظرون اليه... استاذ جديد، طير جديد. هذه الوجوه والملامح تشده بآلاف الخيوط الى أحلام طفولته، الى مراهقته، الى حبهِ الأول، الى مغامراته الأولى. كان دفء الشمس التي أفتقدها لسنوات طويلة، يتسرب الى عواطفه بخدر لذيذ ينعش كيانه. وملأه شعور بالأعتزاز. الآن أصبحت مدرسا في الجامعة بعد أن كنت تتمنى في يوم من أيام بؤسك وشقائك أن تكون طالبا فيها لا أكثر، وهذا الشعور بالعزلة والغربة يجب أن تزيله، فأنت مهما كانت الأمور، في وطنك. مهمتك ليست سهلة، إنها ليست أسهل من مهمة روبنسون على جزيرته المجهولة. كان هو يملك الأدوات التي تساعده على البناء والدفاع عن النفس، أنت تملك فقط الأدوات، وأما ما تدافع به عن نفسك فهو يدك المجردة العزلاء، ولسانك اللبق في الحديث. روبنسون استطاع أن يكسب ضحية من ضحايا أكلة لحوم البشر الى جانبه بقوة السلاح، فصان نفسه من التحول الى وليمة شهية، فبأي سلاح تستطيع أن تكسب أنت صديقا الى جانبك؟ يجب أن لايقتحمك التشاؤم، عليك أن تنظر الى الأمور بنظرة موضوعية وواقعية. لقد تمكن جمعة أن يقاتل الى جانب روبنسون ضد أكلة لحوم البشر، فألحقا بهم الهزيمة، وما تمكنوا من إبتلاعهما. أما أنت، فماهي أدواتك التي تحول دون إبتلاعك من قبلهم؟

اجتاز الفيات البولوني العائد لصديقه مهدي، شارع نينوى ثم أنعطف الى شارع جانبي فالسراجخانه وبعد أن عبر الجسر القديم واجتاز الفيصلية، دار حول ساحة السويس متوجها الى الحي الزراعي في منطقة الغابات. وراح يجتاز الطرقات التي تظللها اشجار الكالبتوس والصنوبر والبتولا والسرو. كان مهدي يذكر له أسماء الأماكن والشوارع التي يمران بها، أعجبته الغابات المحاذية لدجلة. خفف مهدي من سرعة المحرك قائلاً:

– سنتناول طعامنا في هذا المطعم.

هزّ صالح رأسه بالنفي القاطع وهو يتأمل المرتفعات الزرقاء البعيدة الممتدة على الجانب الآخر من دجلة وقال:

– كلا يا عزيزي، سنتناول طعامنا في مطعم شعبي او بالأحرى في مطعم كباب.

– إذن سآخذك الى مطعم الكباب السوري.

واجتازا الجسر القديم مرة أخرى الى الجانب الثاني. وبعد تناول الغداء توجها الى الدواسة، وشربا الشاي في مقهى أطلس. ولعبا الطاولي حتى الخامسة مساء. وطلب مهدي من النادل أن يجلب كوبي شاي آخرين، وقبل أن يلتفت الى الطاولي، لمح رشودي وهو يعرج الى المقهى وقال:

– صالح، أنظر، هل ترى هذا المجنون؟ إنه من ضحايا حضارة إكتشاف الكواكب. لاحظ حركاته. إنه يعتبر نفسه إنسانا آليا، يحدثك عن الكواكب الأخرى، ذاكرا أسماءها كما لو أنه عاش فعلا هناك.

صاح مهدي:

– رشودي!

أنتبه رشودي الى مصدر الصوت. وراح يتقدم منه بحركاته الآلية. قال صالح متسائلا، وهو يحدق في ملامح المجنون الذي كان لايزال بعيدا عنهما:

– رشودي، هذا الأسم ليس بغريب عليّ.

وكلما أقترب رشودي، حدق صالح في ملامحه أكثر فأكثر. قال باستغراب وقد أكتست الدهشة ملامحه:

– يا إلهي، إنه هو، هو بلحمه ودمه.

علق مهدي مداعبا:

–لاشك أنك كنت معه في مستشفى المجانين.

وقف رشودي أمام مهدي دون أن يلتفت الى صالح. قال مهدي بعد أن ناوله سيكارة وقطعة من فئة الخمسين فلسا:

– ماهي أخبار المريخ يا رشودي؟

أجاب رشودي بصوت خافت خجول:

– بخير، بخير يا استاذ، أحسن من الأرض، لقد تم حل آخر التشكيلات العسكرية وانتهى زمن الحروب.

صاح صالح وكأنه استيقظ من حلم عميق:

– رشاد.

التفت رشودي بهدوء وراح يتأمل ملامح صالح الذي سأل بعد لحظات صمت:

– رشاد، هل نسيتني؟

قال وقد أرتسمت على ملامحه ابتسامة جامدة:

– صالح، هل تعتبرني مجنونا؟ ماذا جاء بك الى هنا؟ هل جننت؟

وانصرف بسرعة تاركا المقهى. تسأل مهدي:

– من أين تعرف هذا المجنون؟

– وانت من أين تعرفه؟

إنه مشهور في المدينة، كل المقاهي والمطاعم والشوارع والأسواق تعرفه، إنه مجنون مسالم. ولكن له قابلية عجيبة في الكلام وقول الحكمة. إنه يصاب أحيانا بحالات صرع مؤلمة.

قال صالح بشيء من الحدة وهو يحدق في الفراغ كما لو أنه يحاول إستعادة ملامح حلم قديم:

– مولاي، إن هذا المجنون ليس من ضحايا حضارة اكتشاف الكواكب، إنه من ضحايا شباط، من ضحايا الحزب الحليف.

قال مهدي بلهجة أبوية مربية:

– صالح، ألم نقل إننا يجب أن ننسى السلبيات القديمة؟ إن الحساسية يجب أن تزول. أنك تستغل كل نقطة ضعيفة للضرب على الوتر الحساس.

قال صالح وهو يحاول عبثا التغلب على حدة صوته:

– ليست أنا المسؤول عن إزالة الحساسيات ونسيان الماضي. لو كان بإمكاني لأخرجت مُخي من رأسي ووضعت مكانه مخاً آخر حتى أنسى الماضي،

ونزعت قلبي أيضاً لأزرع مكانه قلبا آخر حتى أفقد كل عواطفي. هل تعتقد أن التخلص من الماضي مسألة سهلة؟ إن الماضي يشدك إليه، يطبع على مسيره حياتك بصماته التي لاتمحى.

قال مهدي مبتسما وهو يفرغ جرعة الشاي في جوفه:

– صالح، عيوني، وفَر علينا محاضرتك الآن قل لي من أين تعرف رشودي؟

–أعرفه قبل أن أتعرف عليك بأكثر من عشر سنوات. كنا معاً في سجن الرمادي.

تسأل مهدي بدهشة:

– ماذا؟ رشودي في السجن؟

واصل صالح وهو لايزال يحدق في الفراغ:

– أذكر أنه كان يستيقظ مبكرا ويرمي النائمين بالبرتقال ويدفن رأسه بسرعة في الغطاء ولما سألته ذات يوم عن سبب قيامه بهذا العمل، قال ان البرتقال هو قنبلة المستقبل. وقبل أن ننتقل الى سجن آخر ساء وضعه العصبي كثيرا. ذات يوم من أيام المواجهات، حين رأى زوجته وطفلته، رفض أن يقابلهما، ومزق ملابسه وراح يركض بسرعة فائقة عاريا في الساحة الواقعة بين السور والقلعة والتي احتشد فيها السجناء وذويهم. وفي نهاية ذلك العام، وبعد أن خضنا معركة ضد إدارة السجن تم نقلنا الى سجن آخر، ومنذ ذلك الحين لم أسمع عنه شيئا.

غادرا المقهى وراحا يتمشيان في الشوارع بلا هدف. كان صالح أسير شعور غريب، شعور

غامض جعله أن يتصور نفسه كما لو أنه في حلم. كان يحس بشيء يشده الى عالم وردي هادىء أشبه بأجواء الكنائس التي يتسرب اليها النور من خلال زجاج النوافذ الملون. كان قد تحلل من كل شيء، من كل عبء. كان الهواء الدافيء يملا رئتيه بسهولة، وبسرعة خاطفة، أسرع من البرق، مرّت بذهنه أحلامه الغريبة التي سرعان ما أختلطت بأيام طفولته فمراهقته. كانت الأحداث تتضارب وتتداخل في رأسه. السماء الزرقاء الصافية، الشمس الملتهبة، الوجوه الداكنة والهواء النقي، كل كان يتسرب الى أعماقه ويفقده وزنه ويجعله مثل ريشة متطايرة عبثا تحاول الألتصاق بالأرض.

كان جو المساء المنعش قد طرد الحر وكانت راحة لذيذة تخدر أعصابه، وبات يشعر براحة روحية أشبه براحة المؤمن الذي لايشعر بالطمأنينة إلاّ حين يجد نفسه جالسا على بساط المسجد نقيا طاهرا.

كان كل شيء يشدّه الى الطفولة.

الحسم

لأول مرة يحس بصعوبة التوصل الى القرارت الحاسمة في اللحظات الحرجة التي لامجال فيها للتفكير الطويل. لو أنه يدري فقط، ما إذا كانوا قد حصلوا فعلا على المعلومات التي تؤيد كونه صديقا لمهدي، عندها يستطيع أن يحسم الأمر بسهولة وبطريقته الخاصة. وأما إذا كانوا لايزالون يعتقدون أنه لم يزل مستقلا ليست له أي علاقة، فكان بإمكانه حسم الأمر بشكل آخر. إنه في الحالة الأخيرة يستطيع أن يصمد، ومهما يكن فأنهم لايستطيعون أن يعذبوه كما يعذب من عليه إعترافات. ولكن، هل أن هذه الحالة مضمونة؟ لقد سبق أن استقال سكرتير منظمته قبل ثلاثة أشهر، فهل انتهى كل شيء بمجرد إستقالته؟ هل أن هذه العملية تعفيه من الملاحقة والتحقيق فالتعذيب؟ وإذا مرَ بالتعذيب فهل يصمد؟ ماهي الضمانه؟ إنه في سلك التعليم وشيوعي معروف في المدينة، والقرار يطبق عليه أيضاً. فهل يقدم الطلب ويوقع كأي معلم آخر لاتهمه المسألة؟ هل أنه سيتصور المسألة كما لو أنها جزء من وظيفته كمعلم؟ أم أنه سيرفض بعناد؟ وإذا كان له الاستعداد لرفض الإنتماء والصمود بوجههم فلماذا إستقال من الحزب؟ إن فرضية توقيعه على الإنتماء والوقوع في أحضانهم أقوى من الحالة الثانية، وهذا يعني أنه يجب أن يقدم لهم تقريرا مفصلا يحتوي على كافة المعلومات التي يعرفها، وإذا تعمَد في إخفاء أي شيء فإنه سيحكم على نفسه بالإعدام شنقا حتى الموت، فهل له هذا الاستعداد كي يضحي من أجلك؟ إذا كان له الاستعداد للتضحية لبقي شأنه شأن الآخرين دون أن يلجأ الى الاستقالة. إذن لايمكن الإعتماد على هذا الجانب غير المضمون. إنها ثغرة غير صغيرة، يمكن أن يمر منها البعير كما يقولون، ويمكن للخطر أن يتسرب منها في أي لحظة. ومسؤول الاستعلامات الذي أشتروه بمبلغ زهيد؟ صحيح، أنه لايعرف أسمك الصريح ومكان عملك، ولكن إذا جاء لتشخيصك في أقبية الأمن، فهل تعتقد أنه سيغمض عينيه؟ هذه أيضاً ثغرة أخرى. وهي ليست أصغر من الأولى. وإذا تجمعت الأدلة كلها ضدك، فماذا ستقول؟ لاشك أن صوتاً رهيباً سيأتيك من زاوية ما في أقبية الأمن، قائلاً:

– هدّام مختفي، تفرز سمومك في عقر دارنا؟ ألم تجد مكاناً آخر غير هذا المكان الذي لايدخله إلاّ المطهرون؟ ألم نقل لك أن هذا المكان محرم لغيرنا؟ ألم تعلم أن الحاجة هي التي دفعتنا لقبولك؟ ولكن كنت صلفا، وتوغلت في صلافتك برفض شرف الإنتماء الى صفوفنا...

وعندما يتسرب ذلك الى أذنيك، عندما تتأكد أنك لست في الحلم، وانما في الفخ. إن أهمالك وترددك لم ينقذا جلدك، فتبدأ معك مرحلة جديدة، هي المرحلة الثالثة والأخيرة في لغة الأمن، وهي التعذيب. وهل أنت واثق من نفسك؟ هل ثقتك مطلقة بصمودك؟ إنها لحظة واحدة فقط، ربما ستنهار فيها ويتحول كل شيء في نظرك الى عبث، فتسقط أنت أيضاً. وبذلك تفقد في لحظة

واحدة ماضيك كله، ذلك الماضي الذي تتباهى به وتعتبره أعز رأس مال لديك. وستفقد في لحظة واحدة كل التضحيات التي قدمتها في عملية صنع تاريخ حياتك... سنوات سجنك، تشردك، كفاحك مع الأنصار ومنفاك كلها تذهب عبثا. سينهار صرح ماضيك كله كإنهيار بناية، يستعمل الديناميت في نسفها، فتجدها تتحول خلال لحظات الى كومة من الأنقاض.

القضية الآن أصبحت جِدية، فيما قرار لايقبل التأجيل أو النقض. والقرار الصادر من أعلى هيئة فرضت نفسها على هذا البلد. يلتزم الطلبة بالزي الموحد، الذي جاء أيضاً بقرار من نفس الهيئة، يجب عليك أيضاً الألتزام بقرار الإنتماء، وترتدي مثل الآخرين الزي الموحد، والا فما السر في بقائك نشازا في هذه الجوقة؟

... اسمع يا صالح، لقد تكلموا معك مراراً وتكراراً وانت مازلت على عنادك. والآن يريدك الدكتور خليل بنفسه، أجل الدكتور خليل بالذات، الذي عاش نفس القصة. أين المفر الآن؟ ليس كل ما يقال يحفظ بسرعة، ولكن ثمة عبارات أو فقرات من الكلام، تقال لمرة واحدة فقط، معلقة في الذهن الى الأبد. أين المفر الآن؟

والآن حين تذهب اليه، يجب تغيير جميع خططك المملة القديمة وعليك أن تبدأ بخطة جديدة، تقلب خططهم كلها رأسا على عقب، وتبطل مفعول كل الألغام التي زرعت في طريقك. يجب أن تستفيد، ليس من المعلومات العسكرية التي أكتسبتها من الأنصار في حينه، بل من إمكاناتك المسرحية أيضاً. يجب أن تكون بارعا في التمثيل، يجب أن توظف كل معلوماتك ومواهبك في إنجاح خطتك وإلاَ فما هي فائدتها إذا لم تستفد منها في اللحظة الحاسمة؟

كانت الكافتريا خالية إلاَ منه. أما الآخرون فقد توزعوا في القاعات الإمتحانية. وفيما هو يفكر في إيجاد الكلمات المناسبة ليواجه بها الدكتور خليل، دخل الاستاذ مفيد، الذي شاركه الغرفة في العام الماضي. وعندما جرى توزيع منتسبي الأقسام حسب الإختصاصات، أفترقا، فبقي مفيد في غرفته، وانتقل هو الى الطابق الثاني، حيث الغرف التابعة لقسم العلوم الإجتماعية. قال بإبتسامته المعهودة:

– صباح الخير دكتور صالح، وحدك؟

وتصافحا، كان يرتاح اليه كثيرا. في بداية تواجده معه في العام الماضي، كان يعتقد أنه كلف بمراقبته وانتزاع الكلام منه، بيد أن الثقة بينهما بدأت، حين همس في أذنه ذات يوم مصرحا أنه تسلل الى صفوفهم، إنما من أجل أن ينقذ جلده. وضع مفيد يده على كتفه قائلاً:

– تذكرناك يوم أمس، كان مكانك خاليا.

قال وهو يحاول إزاحة التجهم البادي على وجهه:

– لابد أنكم قد سكرتم.

– سكرة من هذا التمام

ثم التفت الى النادل طالبا اليه أن يجلب له قهوة ونصف سندويج بيض وقال:

– دكتور صالح، الكلام بيننا. أنت تعرف جيدا مدى حبي وإحترامي لك، فقد عشنا سنة كاملة في غرفة واحدة. يبدو لي أن لحمك ما ينطبخ، فأنت الوحيد الذي لم ينزل الى الحضيض بالتوقيع على صك الإذلال. يؤسفني أن أقول لك انك في خطر. ماذا تنتظر؟ أنك لاتستطيع أن تمسك رمانتين بيد واحدة.

همس في أذنه بعد هنيهة:

– لاتعتقد أنهم أغبياء، إنهم يعرفون كل شيء، حاول أن تجد لنفسك علاجا.

محاولة الاستاذ سالم الجانبية

كان يقلب صفحات أحد أعداد مجلة الجامعة عندما دخلت عليه سكرتيرة القسم قائلة:

– صباح الخير دكتور صالح، استاذ سالم يريدك.

قال وهو يحس قوية تعصر قلبه:

– صباح النور ست ندى، سأذهب اليه حالا.

هل هو ذئب آخر يريد أن يفترسه قبل أن يلبي نداء الدكتور خليل؟ لابد أن هذا الإلحاح لمقابلتك يحتوي على سرّ ما وهو في كل الأحوال لايتعلق بالأمور الوظيفية، فالمسؤول عنك هو رئيسك المباشر الدكتور خليل. عندما جاءتك السكرتيرة قبل مدة، قلت لها:

– من هو الاستاذ سالم؟

فقالت بإستغراب:

– ألا تعرفه؟ إنه معاون العميد للشؤون الإنسانية.

وقلت لها بكل بساطة:

– إن رئيسي المباشر هو الدكتور خليل، وإذا كان الاستاذ سالم يريدني فهو يعرف غرفتي.

وانصرفت السكرتيرة مبتسمة دون أن تقول شيئا.

وجاءتك للمرة الثانية، فأردت أن تذهب، ولكن الاستاذ مفيد، زميلك في الغرفة قد منعك قائلا بطريقته المرحة والصريحة:

– دكتور صالح، أنظر، أنت على الوظيفة في الجامعة، خبراتك مع هؤلاء الأوباش الحبربشية قليلة، ولا سيما أنك عشت في أجواء أوروبا. هنا في جامعتنا تطبق فلسفة تعدد الأزواج.

وقهقهت بأعلى صوتك وأردت مقاطعته، ولكنه قال بوجه جاد:

– لاتقاطعني دكتور صالح، أسمع جيدا ما أقوله لك، لا تسمح لنفسك أن يركبك أكثر من زوج واحد، والذي هو رئيسك المباشر، وإلا ستتحول الى مهزلة. مقرر القسم يحاول أن يركبك، وكذلك العميد ومعاونه للشؤون الانسانيه ومعاونه للشؤون الإدارية... الخ... حاول أن تلبسهم جميعا، وإلا لبسوك.

لقد أعجبتك صراحته، وأحببته رغم حذرك منه، فقلت في نفسك: لقد وجدته، هذا هو روبنسن كروزو، فسميته الأربعاء، لأنك عثرت على جمعتك في يوم الاربعاء.

وأما الآن، فيجب أن تذهب الى الأستاذ سالم. ان نظرية الأستاذ مفيد لن تفيدك.

طلب الأستاذ سالم من الفراش أن يجلب لهما قدحي شاي ثم كرر عليه نفس الأسطوانة القديمة التي ملَها.

أحسَ أنه يتحول الى قنفذ، فأنتصبت سهام جلده وهي تكاد تنطلق من مكامنها لضرب العدو الذي فتح فمه بغية ابتلاعه، كلا، لاتستعجل، حافظ على سهامك من الضياع. أنت الآن في حالة الدفاع وليس الهجوم. أقتصد بسهامك، فهي الوسيلة الوحيدة التي تحول دون إبتلاعه لك. حافظ على هدوئِك، كن باردا وأضبط أعصابك جيدا. وإذ تستمر الأسطوانة القديمة بتكرار الحديث الممل، يبقى هو في واد آخر، يجره الى الذكريات...

كنت حينذاك في السادسة عشر من عمرك، كنت كتلة من اللهب، تخلق المشاكل من لاشيء، حين استدعاك معاون الشرطة في مدينتك الصغيرة عرضَ عليك التعاون معه لتقديم تقارير سرية عما يدور في مدرستك من الأحاديث ضد الملك والحكومة. أنت لم تنس ذلك. ولن تنساه أبدا. قال لك بالحرف الواحد: هذه فرصة لاتُفوَّت، أعرضها عليك لأنني كنت صديق المرحوم والدك، ستتسلم منا أثنان وعشرون دينارا، وكان راتبكم التقاعدي الذي يعيل أسرتكم الكبيرة أقل من هذا المبلغ. وكان أهلك بحاجة الى كل درهم، وأكد لك بأن نجاحك في المدرسة سيكون مضمونا، وانهم سيرسلونك الى الكلية الشرطة أو الكلية العسكرية: استغل هذه الفرصة يا بني، الحياة عبارة عن فرصة ... وكنت قبل هذا الاستدعاء بيوم واحد قد وزعت بحذر تام كمية محترمة من المناشير السرية ثم ذهبت الى إجتماع حلقتكم في أحد البساتين. ونظرت بإشمئزاز الى معاون الشرطة الذي كان صديق والدك، ورفعت رأسك بغرور وانت بودك أن تصفعه على وجهه، فقلت له بتحد:

– أشكرك لهذه الثقة يا عمي، مثل هذه المهنة لاتناسبني، أبحثوا عن غيري. وخرجت. كنت حينها جريئا، أجرأ من الآن في كل الأحوال. وبحثوا عن غيرك، فوجدوه. وفي أول لقاء لحلقتكم، اكتشفتموه. إنك الآن قد كبرت وبلغت السادسة والثلاثين. لقد تجاوزت ذلك المراهق بعقدين من الزمن، فهل من المنطق أن يكون ذلك المراهق أعند منك، وأكثر حزما في مواجهة العدو؟ هل كنت تتصور في ذلك العمر هذا الوضع الذي أنت فيه الآن؟ إذذاك كنت لم تسمع بهؤلاء. أين كان هؤلاء عندما كنت تهز المدرسة كلها بمدرسيها وطلابها، وانت لم تزل بعد مراهقا؟ أما الآن فقد جعلتك الأيام هادئا، رزينا غير مندفع، ولكنك أصبحت أكثر خطرا، كيف تتسلل بخفة الى حصن الأعداء، وتسقي بسطاءهم، من غير المتلوثين بالجريمة، بكؤوس أفكارك التي تسربت حتى الى عظامك والتي أقتنعت كل القناعة بأنها الوسيلة الوحيدة لتغيير العالم كله. ولم يتسرب اليأس الى أسوأ اللحظات التي كان اليأس يعم فيها كل شيء. ترى، أين هذا العفريت الذي يريد أن يبتلعك الآن، عندما تحديت أنت معاون الشرطة وقلت له أبحثوا عن غيري. وكيف كان سيكون جوابه ياترى

لو جويه هو بمثل هذا العرض؟ هذا ما لايمكنك الأجابة عليه.

إنه يريد منك الآن جوابا، ويجب أن يكون جوابك هادئا، مؤدباً، دبلوماسياً، ولكن حازماً وقاطعاً. حذار أن تبدي ضعفا في الجواب والا فإنه سيظل يلاحقك مثل ظلك. يجب أن تعطيه جواباً قاطعاً بحيث لايبعث إليك السكرتيرة مرة أخرى:

– استاذ سالم، إني أشكرك على هذه العواطف كلها، إني في كل الأحوال لا استحق أي شكر، لأنني إنما أؤدي واجبي وحسب. وأما بالنسبة الى مسألة الإنتماء فأنني حين قابلت السيد العميد والدكتور خليل لأول مرة، أعلمتهما بأني إنسان مستقل، وأحب أن أؤكد بأنني سأظل مستقلا، لأن لي وضعي الخاص بي.

قال الأستاذ سالم بلهجة مَن خاب ظنُّه:

– يمكننا أن نتحدث في الموضوع مرة أخرى. ويمكنك أن تفكر في ذلك بتأن، إننا نحبك ونريد أن تكون واحداً منا.

قال بلهجة قاطعة:

– إني أشكر هذه الثقة أستاذ سالم، وأؤكد بأن قراري قاطع. يمكننا أن نلتقي ونتحدث في كل شيء عدا هذه المسألة.

هناك كلمات كثيرة أخرى أردت أن تنطق بها، ولكنك بلعتها وحسنا فعلت.

ولكن، كل ذلك كان في بداية تعيينك، وأما الآن، بعد مرور ثلاث سنوات على ذلك تغيَّرت الأوضاع، فهل بمقدورك أن تواجه الدكتور خليل بنفس الأسلوب؟

اللقاء الأخير

في العالم الغربي يتحدثون عن الجرائم، جرائم إغتصاب الأطفال، قطع الطريق في الليل، مداهمة البيوت ليلاً ونهاراً لأغتصاب النساء الساكنات لوحدهن، ممارسة الجرائم بمختلف أشكالها، الغارات على البنوك، خطف رجال الأعمال والسياسة وكذلك يتحدثون بكثرة وفي مجلات خاصة بالدعارة، أو في مجلات ناطقة بأسم الدعارة التي يديرها رجال أعمال وسياسيون بارزون، غالبا ما يعثر على جثثهم، إما تحت جسور قديمة مهملة أو في مراحيض محطات القطارات الرئيسية في المدن الكبيرة. إنهم يتحدثون عن تلك الأشياء بأطناب، ثم يواصلون الحديث في نفس الوقت عن أفلام الرعب والجنس الجماعي والمنظمات الفوضوية التي تحطم في مظاهراتها واجهات المخازن الكبيرة. يا لهذا الفنجان الهائل الذي تشعبت فيه خارطة العالم المصنوعة من رواسب القهوة البرازيلية. أمريكا حيوان خرافي منقرض، أفريقيا، ليل أسود بإنتظار الفجر، الأتحاد السوفييتي، هذا الدب القطبي الهائل، في طريقه الى الزقاق المسدود. في كل دويلة دون كيشوت من طراز جديد، أكثرهم تواضعا يدّعي النبوة. أجل، أنهم يتحدثون أيضاً عن العنصرية والفاشية وحقوق الإنسان المغتصبة.

لكل الأشياء وجهين، أبيض وأسود، الجانب المظلم، حتى الصورة المعلقة في غرفتك تمثل قناعين، أحدهما يضحك والآخر يبكي. وإذا كان مهرج شكسبير يرافق الملك دوما، فإن المهرج هو الوجه الحقيقي للملك نفسه. وما الملك سوى القناع المتحرك. وإذا كان الملوك القدماء يكتفون بمهرج واحد أو عدة مهرجين، فأن بعض المهربين والقتلة الذين صعدوا العروش، لايكتفون بتحويل شعبهم بأكمله الى مهرج كبير فحسب، بل يريدون تحويل شعوب أخرى الى مهرجين. لقد أقتنوا من التاريخ ميكيافيللي، وراحوا يقرأونه بإمعان. المهم أنك تحتفظ بكرسي العرش، أقفز من فوق أكوام الجماجم، وأسبح في أنهار الدماء، أقتل عدوك وأمش في جنازته. ويظهر الرجل الأسطورة الذي يصنع التاريخ بقدرة قادر.

– ها هو الرجل العظيم يا مهدي فماذا تقول؟ ألم أقل لك أن شعبنا يستطيع أن ينجب أبطالا؟

***

قبل أن تشرف العطلة الصيفية على نهايتها بأيام، يتوجه الأساتذة للإلتحاق بكلياتهم والمباشرة بالدوام في اليوم الثاني من أيلول ١٩٧٨. وكل من يتأخر عن المباشرة يعرف جيداً أن حسابه سيكون عسيرا، ولاسيما هناك إجراءات مشددة في تنفيذ قانون الخدمة الجامعية الجديد الذي يتندر به كافة الأساتذة ويعتبرونه أداة لإذلال الأستاذ الجامعي ليس إلا. وإذا كانت الهيئات العليا تُشدد على تنفيذ القانون ومراقبة الأساتذة من قبل العمادة بصورة دقيقة، بحيث

أنهم يجب أن يتواجدوا في تمام الساعة الثامنة صباحا في غرفهم ويتركونها في تمام الخامسة عصرا، فإنما لأن الأساتذة مدللون أكثر من اللازم.

ومع بدء السنة الدراسية تبدأ المشاكل أيضاً. ولاشك أن المشاكل هذا العام ستكون معقدة جدا، أن الوضع بشكل عام لم يكن مريحا. وكانت الشائعات الكثيرة لاتبشر بقدوم خريف مريح.

كانت الشمس وراء النافذة قد وهنت، وبدت أشجار الكالبتوس العملاقه كما لو أنها أنتعشت بعد إنكسار حدة القيظ. وكان النسيم المشبع بندى دجلة والغابات يبشر بإنتهاء الصيف الذي مرّ كالجحيم، مخلفا وراءه أرضا محترقة، وأعمدة من دوّامات الرياح المحملة بالرمال والغبار، تنطح السماء الراكدة وتتلاشى في أعماقها. كانوا لايعرفون أن هذا اللقاء الذي عقدوه في منزل جبار سيكون الأخير. قال صالح بعد أن أرتشف جرعة من الشاي:

– أعتقد إننا كتب علينا أن نكون ضيوف أبديين في وطننا. ها أنني لم يمض على وجودي في الوطن ثلاث سنوات وأجد نفسي مرة أخرى مطوقا بالإعداء. وانتما، هل وضعكما أحسن مني؟

قال مهدي:

– لا بل أخطر، ولكنني لا أعتقد أن موجة الاعتقالات تشمل الأساتذة الجامعيين.

ضحك جبار قائلاً بسخرية:

– ستبقى ساذجاً يا مهدي طول عمرك.

قال مهدي بيأس:

– ما العمل إذن؟

قال صالح وقد بسط ذراعيه الى جانبي الأريكة، قاطعا شروده:

– هذا ما يجب أن نبحثه في لقائنا هذا.

بعد فترة صمت قصيرة عدّل من جلسته وأضاف:

– نحن أمام خيارين، إما أن نتعاون معهم أو نغادر هذه المؤسسة، وهذا يعني ترك الوطن.

كان جبار واقفا، قال وهو يجيل نظراته في الأثاث الغربي الذي جلبه من الخارج بعد أن شمله قانون الكفاءات:

– لقد أثقلنا أنفسنا بأشياء كل ينبغي أن نستغني عنها، على كل حال سأرسل زوجتي الى أهلها في المانيا، وقريبا سأتخلص من الأثاث ثم أعلق.

قال مهدي متنهداً بعمق:

– وأما أنا، فلم أقرر بعد ما سأقوم به، إن كل أفكر فيه هو أمر العائلة، الى أين مع خمسة أطفال؟

ربما، إذا استطعت أن أدبر مبلغا من المال، سأسافر الى أحد البلدان العربية.

قال جبار بعد أن جلب وجبة أخرى من الشاي:

– على كل حال، وضعنا بشكل عام لايحسد عليه.

قال صالح، وعلامات الحيرة بادية على وجهه الكئيب:

– يوم أمس لم أنم حتى الواحدة صباحا، لقد نبشت على غير عادتي عن جميع إذاعات العالم، سمعت إنواع الأخبار، سمعت إحتجاجات حتى جمعيات الرفق بالحيوان وهي تحتج لإبادة نوع معين من الجرذان، أردت أن أسمع خبرا واحدا فقط عن العراق، فلم أوفق. لا أحد يريد أن يتحدث عما يجري في هذا البلد. تصوروا لو أن أستاذا جامعيا أهين من قبل شرطي في باريس، أو أرغم حزب المحافظين في بريطانيا أحدهم للأنتماء الى صفوفه بالتهديد، أو أغتيل زنجي في جنوب أفريقيا، إذ ذاك ستقوم القيامة، هذا شيء جيد بالطبع، ولكن أن يأتي ثلاثة أفراد من الأمن في الخامسة صباحا الى منزل أستاذ جامعي عراقي ويسوقوه بملابس النوم أمام أولاده وزوجته الى أقبية الأمن، ويمارسوا معه شتى أساليب التعذيب الهمجية ويرغمونه على التوقيع على طلب جاهز للإنتماء الى الحزب، كل ذلك لسبب بسيط للغاية، ألا وهو لأنه أراد أن يقدم إستقالته من وظيفته، أقول كل هذا يحدث يومياً كما لو أنه شيء طبيعي، ولا أحد في العالم يقول شيئا.

اتخذ جبار مكانه قبالة صالح بعد أن كان واقفا طيلة الوقت، وقال هازّا رأسه:

– أنت مازلت تفكر مثل الأوربيين يا صالح، نحن هنا في عالم آخر، ثم أنك لاتستطيع أن تتوقع من أحد في العالم أن يقول شيئا، إذا لم يبادر أهل الدار بقول شيء ما. نحن ما زلنا في جبهة واحدة مع الأعداء.

قال مهدي بلا مبالاة:

– نحن نمسك بعصا تلطخ كلا طرفيها بالغائط.

علَق صالح ضاحكا:

– نظف احد طرفي العصا وأمسك بها بشكل صحيح.

– وهل هناك عصا حتى تكون ملطخة بالغائط؟ إننا لانملك سوى هذه الأيادي العزلاء.

قال ذلك جبار وهو يريهما يديه.

هكذا تتعاقب الأشياء بسرعة مذهلة في هذا البلد العريق الذي رقدت حضارتهُ في المهد. إنها تتناوب كتناوب الليل والنهار وتختلف كإختلاف درجات حرارتيهما، أو كإختلاف جباله الشاهقة وأهواره المنبسطة أو كإختلاف مزاج أهله المتقلب كتقلبات الرياح الجنوبية والشمالية.

قبل أقل من ثلاث سنوات وصلت بلدك معززا مكرما رافضا كل إغراءات أوروبا الجميلة، تاركا وراءك الغابات والحقول الخضراء والنساء الجميلات وزرقة البحر والهدوء، لقد حولت كلها الى مجرد ذكريات كدت أن تنساها، لتبدأ حياتك الجديدة التي بدأت جميلة حقا. لقد بدا لك كل شيء جميلا، ورأيت في سماء بلدك أجمل السموات. وعندما ملأت رئتيك من هواء الوطن، تأكد لديك أنك لم تتنشق مثل هذا الهواء في أي مكان آخر، حتى الأرض الدافئة التي استلقيت عليها بعد إنقطاع طويل، شعرت بها جديدة عليك، يتسرب منها الى جسدك تيار يبعث الخدر في أعصابك، فوجدتها أجمل من كل أراضي العالم، فمررت أصابعك على جسد الأرض تمسدها وانت تقول:

– هنا آثار أقدام نوح وكلكامش وحمورابي، هنا استلقت عشتار وسميراميس، ومن هنا مرّ زرادشت وهو على بعيره الأصفر، يبشر بتعاليمه حول أهريمان وأهرومزدا.

ولأول مرّة تحدق في وجه فتاة عراقية عن قرب وتشد عينيك الحائرتين الى عينها السوداوين العميقتين وانت تكاد تحترق من اللهب الذي أرتفع من أعماقك فجأة. هنا الحب، بعد أن كنت لاتعرف عنه سوى الجسد.

مازال الصمت مطبقا على الأصدقاء الثلاثة، ووراء النافذة الواسعة بدأت أشجار الكالبتوس تتحرك أمام الرياح الجنوبية الدافئة التي حلّت محل النسيم المحمّل برطوبة دجلة والغابات. وبدأت الرمال والغبار التي تشكلت هنا وهناك، تتحول الى أعمدة ترابية تتصاعد الى السماء وتتلاشى في أعماقها.

التأجيل

رنّت في أذن الدكتور صالح عبارة لاتعتقد إنهم أغبياء، إنهم يعرفون كل شيء عنك، والآن تتوضح أمامك نقطة جديدة كنت تنتظرها منذ أمد غير قصير، ولكن، ماهي، مدى دقة هذا الكلام؟ ربما يريد مفيد لشدّة حبه لك أن يعطيك بهذا الكلام مجرد إشارة خطر كي تهيء نفسك للطواريء غير المتوقعة، وتكون على الأقل في حالة إستعداد للمفاجأة، أو ربما هم الذين أوحوا اليه بهذا الكلام حتى يظمّوهُ الى جوقة الحرب النفسية ضدك. وها هو، ماكنتم تسمونهُ في جلسات سكركم زمرة العشاق، تتحول الى زمرة الفئران، فهي لم تلتق منذ مدة غير قصيرة وأعضاؤها الذين منحوك عضوية الشرف يتحاشون اللقاء بك. إذا كانوا حقا يعرفون كل شيء عنك، فلماذا لم يجر إلقاء القبض عليك؟ هل هناك إستثناءات عند أجهزة الأمن؟ ومنذ متى؟ ولماذا؟ ربما لأسباب تكتيكية، من يدري؟ قالت له أخته، أنها رأت سيارة بيكاب، وقد توقفت عند مدخل الزقاق بصورة مشبوهة وأشار أحد الجالسين في مقدمة السيارة الى بيتهم، ثم أخترقت السيارة الزقاق بسرعة فائقة. يا لهم من جبناء أخساء. إنهم إذن شخّصوا البيت، ولا شك ثمة إعتراف عليك، وليس من الضرورة أن يكون ذلك من جانب مهدي. وإذا كانوا يتريثون في إلقاء القبض عليك، فإنما إعتقادا منهم أنك في الجيب، ويمكن القبض عليك كأية نعجة، وفي أي لحظة يختارونها هم. إنهم واثقون من أنفسهم الى درجة الغرور، والسبب يكمن في غباء الآخرين ليس إلاّ. ولابد أنهم قد أتصلوا بالكلية واستفسروا عن رأيهم بخصوص إلقاء القبض عليك، فأعلموهم بأن المحاولات جارية لإقناعك بالإنظمام الى صفوفهم. واليوم، هو اليوم الحاسم والأخير في حياتك. ولاشك أن سيارة البيكاب تنتظر في مكان ما جوابك بنعم أم لا.

الآن بقي أمامك أن تقول نعم أو لا، وإذا كان جوابك بالنفي، فإنك تعرف أحسن من غيرك كيف ستكون النتائج. ربما سيجري إسقاطك، ولم لا؟ ألم يسقطوا مهدي وجبار؟ ألم يسقط غيرك ممن كانوا عمالقة في هذا الميدان؟ أنت لاتعرف مدى حساسية أعصابك وجلدك. هذه مسألة لاتستطيع أن تقدرها ما لم تعشها فعلا. إنها ساعات وليالي صعبة جدا لاتنتهي، وربما تمتد الى أسابيع، وربما تموت تحت التعذيب فتكون خسارة للآخرين، وتبقي حزنا عميقا في بعض القلوب. وأما إذا قلت نعم، فأنك ستنتقل من ساحل الى آخر. ستخرج من جلدك وتفقد محتواك، وتكون أيضاً في عداد الموتى، سواء بالنسبة لذاتك أو بالنسبة للآخرين. أنت الآن في مفترق طريقين لا ثالث لهما. وبعد أن كانت الأشياء غامضة في رأسك، بدأت الآن تتوضح شيئا فشيئا، فلا دخان بلا نار، وإلاّ فلماذا هذا التأكيد: لاتعتقد أنهم أغبياء، أنهم يعرفون كل شيء عنك. أجل، أنت تعرف جيدا أنهم ليسوا أغبياء، بل خبثاء في ذكائهم. يجب عليك الآن أن تقرر مصيرك. وفي كل الأحوال يجب أن لاتخيّب

ظن الكثيرين فيك. إن المسألة قد تجاوزت حد المباديء، إنها مسألة كرامة فحسب. وإذا كنت تفكر بهذا الإتجاه فعليك أن تحكم خطتك، وإلاّ ستكون العواقب وخيمة عليك.

هل ستواجه الدكتور خليل مثلما واجهت الأستاذ سالم أو الأستاذ ناظم الذي لايسمح أن يناديه أحد بإسمه المجرد، وتقول: الانتماء يا دكتور خليل يكون برغبة ذاتية... هل ستواجهه بهذا الكلام؟ وهل أن مفاتحة الدكتور لك بنفسه مسألة إعتباطية؟

عندما همَّ بترك مكانه، دخل الدكتور عادل وبدا كما لو أنه يبحث عن أحدهم، قال بإستغراب:

– ألم تذهب بعد الى دكتور خليل؟

– أنا الآن في طريقي إليه.

– وماذا قرّرت؟ لاتركب رأسك يا صالح، إنه مجرد توقيع وستريح الكثيرين.

– وهل هناك حل آخر؟

قال عادل بعتاب:

– لماذا كنت تراوغ دائما؟

– لابد من الدلال.

– هذه نذالة، كان يمكنني أن استفيد أنا من تقديمك.

قال صالح بإستغراب:

– تستفيد؟ وماذا كنت تستفيد؟

– الترقية الحزبية والوظيفية ومبلغ خمسين دينارا.

– يؤسفني يا عادل، كان ينبغي أن تذكر لي ذلك من قبل.

– هيا الآن أذهب الى الدكتور خليل وعد بسرعة، أشغالنا كثيرة في اللجنة الإمتحانية.

كانت الوجوه وجدران الكلية وأروقتها وأشجار الكالبتوس وكل شيء حواليه يبدو له غريبا، كما لو أنه لم يسبق أن رآها من قبل. كان شيئا أشبه بالنعاس يتسلل الى أعصابه. وشعر بحركة قلبه غير إعتيادية، تارة تصعد بقوة وأخرى تنزل بسكون، ويحس كما لو أن حركة قلبه قد توقفت. مدّ يده الى وجهه يمسحه كما لو أنه يريد أن يزيل الشحوب الذي غطاه. وصعد السلم. أليس هو نفس السلم الذي يصعده وينزله يوميا عشرات المرات؟ ولكنه الآن يبدو له شيئا آخر، سلما يؤدي به الى محطة جديدة، قد تكون أول وآخر محطة في حياته. طرق الباب ثم دفعه بخفة، والتقت عيناهما ببعضهما في آن واحد. لمح شحوبا غير إعتياديا يكتسي وجه الدكتور خليل. وبدا له أضأل مما كان عليه من قبل، ولم يحس تجاهه هذه المرة بذلك الأحترام الذي كان يكنّه

له من قبل.رآه إنسانا آخر لايوحي بأي هيبة، إنسانا لايختلف عن الأستاذين سالم وناظم. قام من مكانه وراء المكتب وقال وهو يمد يده مصافحا إياه:

– أهلا دكتور صالح.

قال وهو يتصنع إبتسامة ود:

– العفو دكتور خليل، لقد تأخرت، أشغالنا كما تعلم كثيرة في اللجنة الإمتحانية.

– لابأس، شكرا جزيلا.

أحس أنه استطاع أن يسيطر على حركة قلبه المضطربة، بيد أن القلق مازال يربك أعصابه. وكانت هالة الخوف الغريزي التي تحيط بقلبه قد زالت. وخلال هنيهة الصمت التي أطبقت عليهما، استعاد قوّته المشتتة. وعرف جيدا أن الدكتور خليل يبحث عن الكلمات، وانه عبثا يحاول التغلب على إحراجه وإضطرابه. إذ أن كلمات الترحيب والاستفسار المصطنع عن الصحة قد طالت. وخلال ذلك كله كان يحاول هو أن يكون طبيعيا. فتح الدكتور خليل حقيبته الملقاة على مكتبه وأخرج منها بعض الأوراق وقال دون أن ينظر اليه:

– الحقيقة، دكتور كنت أحب أن التقي بك قبل هذا اليوم، ولكنك تعرف أن أشغالي كثيرة. ومسألتك كما ترى قد طالت، فلا داعي أن تبقى خارج القوس.

ثم شرح له الإجراءات الروتينية في ملء الاستمارة التي يعرفها وأكد على الإنتباه الى نقطتين مهمتين، هما: عدم إخفاء المعلومات والتعهد بعدم الإنضمام الى تنظيم آخر، لأن عقوبة كلا العملين، هي الإعدام. قال بلهجة طبيعية وهو يحاول التغلب على آثار السخرية التي أنطبعت على ملامحه لعقوبتي الإعدام اللتين ينبغي عليه أن يوقعهما بيده:

– دكتور خليل، أنا مبدئيا لست ضد الإنتماء، وأسمح لي أن أشكرك جدا على هذه الثقة التي أرجو أن أبررها بكل جهودي، ولكن هناك بعض الملاحظات التي أحب أن أذكرها قبل البدء بعملية الإنتماء.

قال منشرحاً وقد تفتحت أساريره لهذا الجواب الذي لم يكن يتوقعه:

– تفضل دكتور، أنت حر في إبداء أية ملاحظة مهما كانت. خذ كامل حريتك.

– دكتور خليل، أنت تعرف جيدا أن مسألة الإنتماء الى أي حزب هي مسألة مصيرية، ولا يمكن أن يقررها الإنسان خلال لحظات، ولذلك هل من الممكن أن تمهلني لأيام قليلة وتعطيني النظام الداخلي وما شابهه من الوثائق للإطلاع عليها؟

قال الدكتور خليل بلهجة المنتصر الذي أنجز مهمة شاقة:

– أمامك أسبوع، وأما النظام الداخلي فإن الأطلاع عليه يتم بعد الإنتماء، وسنلتقي بعد أسبوع

هنا.

وقام من مكانه وراء المكتب مصافحا إياه.

عندما ترك الدكتور صالح الغرفة، صادفه عادل في الممر وأشار اليه أن يتبعه الى غرفته، قال بهمس:

– هل وقّعت؟

– كلا، بعد أسبوع.

– يا لك من نذل، كان ينبغي أن لاتفعل هذا، على الأقل خجلا من الدكتور خليل. على فكرة سألني اليوم قبل لقائكما ما إذا كنت تنوي السفر الى الخارج في العطلة الربيعية.

– ماذا قلت له؟

– قلت له إنه يكمل عادة معاملات السفر في العطلة الربيعية ويسافر صيفا.

– هذا إذا استطعت أن أوفر بعض المال.

علق عادل ببراءة:

– أعرف أنك "ستعلق"، ولكن لاتسبقني في ذلك، سنعلق معا. أنا ايضا مللت من الوضع.

رد صالح بحزم لا إرادي:

– أنا لم أمل من الوضع ولن "أعلق".

قال عادل بصوت خافت دون أن يصدق كلام صالح:

– لم أنم طيلة الليلة الفائته، لقد أجبرونا يوم أمس لمشاهدة عمليات الإعدام التي أجروها ضد عدد من الأكراد، إنهم فعلا فاشست.

قال صالح بصوت خافت أيضاً وهو يترك الغرفة:

– هسسسسسسسسس...

عندما اجتار الممر، كان ينتظره مفيد عند سياج السلم، قال بهزة من رأسه:

– تكلم، مصير زمرة العشاق يتعلق بكلمة واحدة منك.

– أجّلنا القضية الى الأسبوع القادم.

عانقه مفيد وقبله من خده قائلاً:

– كان يدي على قلبي، لا أعتقد أنك قد تخيب ظننا فيك.

هبط السلم بسرعة. وفي الممر المؤدي الى اللجنة الإمتحانية التقى بأحد طلابه. ضرب على كتفه قائلاً:

– انتهيت من قراءة كتاب عن الحرب. يمكنك أخذ الأجزاء الثلاثة من على المكتب في غرفتي.

وانصرف بسرعة قبل أن يفسح له المجال للكلام، وهو يفكر في إنجاز أشياء كثيرة خلال هذا الأسبوع. وعندما اجتاز باب غرفة اللجنة الامتحانية، واجههُ معاون العميد لشؤون الطلبة، قال وهو يصافحه:

– تهانينا دكتور.

ثم راح يهمس في أذنه:

– انفتحت أبواب الخير، ستبزنا جميعا.

وانصرف.

كانت غرفة اللجنة الامتحانية خالية إلاّ من أثنين من أعضاء اللجنة. وكان جهاز الرونيو صامتا، وعندما ضغط على الزر، نقله الضجيج الرتيب الى أجواء بعيدة غير واضحة المعالم. وشعر كما لو أنه جالس في قطار، والضجيج الرتيب يترك وراءه المسافات الطويلة. إنه سيأتيك بالضبط بعد أسبوع. لا لن ينسى الموعد، وسيضحي بكل أشغاله الأخرى من أجل أن يكون في المكان والموعد المحددين.

أيقظته ضربات يد خفيفة على كتفه من أحلامه، ها هو وجه حامد يطل عليه، إنه يبتسم بحزن ورجاء:

– دكتور صالح، لقد غيّرنا أسم زمرة الفئران من أجلك أنت، لاتخيّب ظننا فيك، والآن بقي بينك وبين الإذلال أسبوع واحد فقط، إني سأسكر هذه الليلة الى أن أتحول الى خروف، هل تسكر معي؟ عندي زجاجة ويسكي لازالت عذراء.

– لن أشرب هذه الليلة قطرة.

انصرف حامد، وانتقل هو مرة أخرى الى أجواء الضجيج الرتيب الذي ذكره بضجيج القطار البطيء الذي كان يمر يوميا مرتين بمدينة طفولته.

مصير الدكتور مهدي

قالت له زوجته وهي منشغلة بغسل الأواني والصحون:

– مهدي، لا داعي أن تسافر اليوم الى الموصل، نحن لانحتاج الى أي شيء. سأذهب بنفسي وأتسوق في القرية، ألم تسمع ما قاله جبار؟ الحملة بدأت تشتد فعلا.

قال مهدي وهو يتمشى جيئة وذهابا كالملسوع بين المطبخ وغرفة النوم:

– هناك بعض التهويلات بخصوص الحملة، ألاَ تعرفين مبالغات جماعتنا، أنهم يصورون كل شيء إما في السراء أو في الضراء. ثم أنهم لايعملونها مع الأستاذة.

وضعت الأواني جانبا، وتقدمت منه وهي تمسح يدها بمنشفة:

– مهدي، لاتكن طفلا، ألا تعرف هؤلاء؟ أقول لك تحمل عدة أيام أخرى ولنر كيف ستكون الأمور.

– لا، يجب أن أسافر اليوم، لقد ضقت ذرعا من السجن، بيت، كلية، نادي وبالعكس، ثم أني لا أسافر وحدي، سآخذ معي صديقين. إني أعرف خططهم، إنهم يلقون القبض على الإنسان حين يكون لوحده في مكان معزول.

قالت غامضة:

– إفعل ما تشاء، إني حذَرتك، أنت لاتعقل إلاَ إذا ورَموك.

– يا إمرأة يا حبيبتي، كوني واقعية، إنهم إذا أرادوا أن يلقوا القبض عليَ فإنهم سيفعلونه حتى إذا كنت نائما معك في غرفة النوم، فلماذا تريدين أن أتحول الى نعامة وأخفي رأسي في الرمل ثم هل تريدينني أن أختفي؟ أم نسافر الى الخارج؟ ألم نبحث هذا الموضوع عدة ليالي وأيام دون أن نخرج بنتيجة؟ إنني سأحاول أن أصمد أمامهم حتى النفس الأخير.

أشتغل محرك الفيات البولوني بعد أن ظل ساكنا لمدة أسبوع. وحين أنعطف الى الشارع العام الذي يربط بوابتي الكلية، توقف أمام نادي الطلبة وفتح مهدي الباب لزميليه اللذين كانا ينتظرانه هناك. قال وهو يضغط بقوة على دواسة البنزين:

– إخوان، سوف لانبقى في الموصل أكثر من ساعة.

– نصف ساعة تكفي.

المهم سنكون هنا قبل مغيب الشمس.

اجتازت السيارة البوابة الكبيرة ثم أنعطفت الى يمين الشارع العام. كانت شمس كانون الثاني

واهنة صفراء تميل الى الأفق الغربي، وتنحدر ببطء للإختفاء بين غيوم حليبية زرقاء فاتحة تؤطرها حواشي بنفسجية سرعان ما تتحول الى لون وردي فبرتقالي لمّاع يضيء الأقسام العليا منها، وكانت الأقسام السفلية من الغيوم تتلاشى في زرقة داكنة عائمة فوق التلال الكلسية البعيدة التي تحتضن أرضاً داكنة مائلة توحي بالكآبة. وكانت الريح الشمالية الجافة القادمة من جبال كردستان تحمل معها نتفا من الغيوم الكثيفة التي خلفت وراءها الثلوج في مكان ما وراء الأفق الشمالي.

لمح مهدي من بعيد رجلين يقفان في نهاية سياج الكلية الذي يحاذيه صف من أشجار الكالبتوس، وهما يلوحان له بالوقوف. قال وهو يخفف السرعة:

– لاشك أنهما يسافران الى المدينة، سنأخذهما معنا.

قال أحد الأثنين:

– كنا قد قررنا أن لانتأخر، فها أنت تسبب لنا التأخير.

قال الثاني:

– دكتور، لاتحمل في سيارتك كل من هبّ ودبّ.

قال باعتداد:

– سيارتي ملك الشعب، ثم أني لا أحملهما على ظهري.

توقفت السيارة قرب عابري السبيل، قالا بصوت واحد:

– السلام عليكم، رايحين للموصل؟

– تفضلوا إخوان.

قل أحدهما بعد أن سحب بخفة مسدسا:

– أنتما انزلا من السيارة، دكتور أنت تأتي معنا. هناك استفسارات بسيطة جدا.

جمدت يداه على المقود، وأما زميلاه، فقد تركا السيارة بعد أن كسى الشحوب وجهيهما:

– تسمح دكتور من فضلك أن أقود أنا السيارة؟

وبدون أن ينطق بكلمة ترك مكانه منسحبا الى المقعد المجاور له:

– لا دكتور، أرجو أن تتخذ مكانك في المقعد الخلفي بجانب صاحبي.

والتفت الرجل الذي تسلم مقود السيارة الى زميلي مهدي وقال بإحتقار:

وانتما، هيا انصرفا، والويل لكما إذا فتحتما بوزكما.

وانطلقت السيارة بسرعة. شعر بقواه قد خارت، وحين التفت الى وراء، رأى زميليه جامدين في مكانهما. وأطل عليه وجه زوجته الذي كان متجهما غاضبا ثم أصطفت أمامه الوجوه الخمسة لأولاده. قال الجالس بجانبه:

– دكتور، سوف لانتأخر، سترجع الى أهلك بعد أقل من ساعة، إنها مجرد استفسارات صغيرة جدا.

علق الجالس وراء المقود بسخرية، وهو ينظر إليه من خلال المرآة:

– المسألة متعلقة بالدكتور نفسه، ربما سيرجع الى أهله بعد أقل من نصف ساعة أو أنه لن يرجع الى الأبد.

– أعتقد أن الدكتور لايرفض التعاون معنا. وهو يعرف جيدا أن الثورة محاطة بأعدائها من الرجعيين والاستعمار والصهيونية.

– ها دكتور، لماذا لاتتكلم؟ أين هو لسانك الطويل؟

– الدكتور ساكت، أعتقد أنه يفكر في الصمود، هذا آخر ما يجب أن تفكر فيه يا دكتور. الذين نذهب اليهم الآن جلاوزة لايعرفون الرحمة، فمن المستحسن أن لاتعرض نفسك للإهانات والضرب.

– دكتور، المعروف عنك أنك إنسان مرح وتضحك دائما، فلماذا هذا التجهم؟

أطبقت عليهم فترة صمت. كان لايصدق أنه الآن في قبضتهم. وتمنى لو كان هذا حلما، ولكن لا، هاهو بلحمه ودمه ويقودونه بسيارته هو بالذات. حتى سيارتك بدأت تخونك. مهدي لاتكن طفلا، هل نسيت ماضي هؤلاء؟ ولكن الآن الى أين يا ترى؟ وتراءت له مجموعة وجوه، ترى أي وجه من هذه الوجوه قد خانه؟ ربما لم يخنك أحد، وهل أنت تحتاج الى أن يخونك أحد؟ ألم تمثل حزبك عندهم منذ أربع سنوات؟ وهم ينادوك بالرفيق، الرفيق العضو في الحزب الحليف؟ هل تستطيع أن تنكر كونك لست في الحزب؟ هل تتذكر كتاب الأمير لماكيافيلي الذي أعارك إياه أحد أصدقائك ممن ترك صفوفكم قائلاً: هاك خذ يا مهدي، إقرأ هذا الكتاب جيدا، سوف تتذكرني ذات يوم وستعرف لماذا أعرتك هذا الكتاب. هل رأيت يا مهدي، أنت القادم من ضفاف الصحراء والمشبع بروح الإباء والشهامة والصدق، تنصب الفخاخ للطيور الجريحة، أنت الذي كنت ترفض في صغرك وبخلاف أقرانك، الغدر بالطيور البريئة. ضحية من أنت يا مهدي؟ أتذكر ماقاله لك جدك الشايب وهو يمرر يده المعروقة على رأسك:

– يا بني، نحن عرب، لن نطعن أحداً من الخلف، وإذا شاركنا أحدهم الخبز والملح فلن نخذله. ومن يخذلك الآن يا مهدي، من؟

خففت السيارة من سرعتها، والتفت السائق اليه قائلاً:

– دكتور ماذا قررت؟

– دكتور، الاعتداء ليس من أساليبنا، أمامك الآن دقيقة واحدة لا أكثر، يمكننا الآن أن نرجع الى بيتك، إنه مجرد توقيع.

ترى، ماذا سيقول له أصدقاؤه إذا أقدم على مثل هذا العمل الشنيع؟ مستحيل أن يقدم على مثل هذا العمل. لن يلين أمامهم، فليفعلوا ما يشاؤون. وتراءت له صور التعذيب التي سمعها من الآخرين.

– دكتور هذه آخر فرصة لك.

عبرت السيارة جسرا صغيرا. وفي المنعطف النازل، خففت من سرعتها أكثر، ثم خرجت من الشارع العام لتقف جنب سيارة بيكآب. بدت له السيارة غير غريبة، ولم يتمكن أن يتعرف على الرقم. وقبل أن يستطيع التحديق في الوجوه الثلاثة الملثمة، شد الرجل الجالس الى جانبه عينيه بعصابة، ولما حاول الأمتناع، فآجأه الثاني بصفعة قوية، أحس بها كما لو أنها أحرقت وجهه:

– أخ القحبة، أنتم ماتصيرون أوادم.

أراد أن يقول شيئا، ولكنه فكر أن الجواب لايكون سوى الإهانة، ثم أن عدم الخروج من الصمت هو أحسن إهانة لهؤلاء. وتحول كل شيء الى ظلام دامس. كانت الشمس قد وهنت أكثر وتقترب بسرعة من الأفق كما لو أنها تريد أن تختفي قبل وصول الغيوم الكثيفة التي بدأت تغطي السماء المكفهرة. وبقيت صورة الشمس المائلة الى الغروب وراء التلال البعيدة، منطبعة على مدى الظلام اللانهائي. وقاده أحدهم الى مؤخرة البيكاب. وسحبت يد ياقة سترته بقوة الى الداخل. لم يتحسس موضع قدمه، ففقد توازنه ساقطا على وجهه، وعرف أنهم تعمدوا ذلك. وشعر بالارضية الحديدية لزجة، باردة وصلبة. وعندما حاول النهوض، أرجعته ضربة كعب حذاء على منتصف عموده الفقري ثم بدأت الضربات تتوالى بصورة عشوائية على ظهره ورأسه وبطنه. كان قد سمع ذات مرة من أحد أصدقائه الذين مرّوا بالتعذيب، أن الإنسان يجب أن يضغط على أسنانه بقوة ويكتم أي أنَه تريد الأنطلاق. وضغط على أسنانه بقوة. ولم يستطع التغلب على حقده، فقال بلا إرادة منه:

– فاشست، جبناء.

وتوالت الضربات على جسده. لم يعد يحس بالألم. كان جسمه قد تحول الى شيء أشبه باللباد.

وكان يسري في كيانه ببطء. ومرت من أمامه وجوه أولاده الخمسة. أبنته الصغيرة تبتسم وتمد له يديها الصغيرتين.

...

عندما انتبه الى نفسه، أحس بجسمه قد تحول الى قطعة جليد. وكان كل جزء فيه يصرخ بالألم. أراد أن يتحرك فلم يستطع. علم أن يديه موثوقتان. كانت أسنانه تصطك من البرد، وعيناه مازالتا معصوبتين. كانت آلاف الأصوات الغامضة، أشبه بهدير المصانع والآلات المعقدة، تتداخل في رأسه ، تلتقي بأصوات غريبة أخرى قادمة من مكان مجهول في أعماقه. وبقي على هذه الحالة فترة لايعرف مداها، بيد أنه شعر فجأة بشيء من الصفاء يعود الى رأسه. وتراءت له وجوه كثيرة تتعاقب أمام عينيه بأشكال مختلفة، ضاحكة، باكية، حزينة، مرتعبة، مشوهة، مرحة، متجهمة، معروفة وغير معروفة. شعر بجفاف غريب في حلقه، وبشفتيه قد تحولتا الى قطعتي جلد محروق. إنه بحاجة الى الماء، الى قطرات عذبة من ينبوع صاف يبلل بها بشفتيه وفمه. وراوده ندم، كان ينبغي أن يختفي عن الأنظار، أن يلجأ الى عشيرته، الى حافة الصحراء، أن يسافر الى الخارج بطريقة من الطرق، ولكن ماذا يفيد كل هذا التفكير؟ ماذا يفيد الندم؟ إنه الآن بين أيديهم. كان لايعرف ما إذا كان الوقت ليلا أم نهارا، أجل، عندما يكون الإنسان في الأقبية والقنوات الأرضية، فإن الليل والنهار يتساويان ويفقدان معناهما.

سمع صوت إنفتاح الباب ووقع أقدام، وتشنجت خلايا جسده، قال أحدهم:

– هيا فك وثاقه، سنأخذه الى فوق.

وبغتة تلقى ضربة مؤلمة على خاصرته، أطلق على أثرها صرخة مكتومة بلا إرادة منه:

– لا خوف على الدكتور، إنه حي يزرق، إنه بدوي الأصل له جلد البعير.

علق صوت آخر بسخرية:

– إنه أقوى من أكبر ثور في كلية الزراعة.

– دكتور، كل ما حصل معك الآن هو مجرد سلاطة من النوع الخفيف. ننصحك أن تعقل. سنأخذك الآن الى أحد المسؤولين، وعليك أن تكون مؤدبا أمامه وتجيب على أسئلته بدون إخفاء أي شيء، وإلاّ ستكون الحفلة الكبرى بأنتظارك. ولعلمك. ستستلمك جماعة أخرى نحن بالنسبة لهم أقزام. ونقول لك بصراحة، إذا كانت لك نيّة الصمود فإنك لن تخرج من هنا حيا.

– يظهر أن الدكتور مصمم على الصمود، إنه يريد أن يكون بطلا.

– كثيرون هم الذين صمموا على الصمود، هذه المخلوقات ليست غريبة علينا. فك أحدهما وثاقه وأزاح العصابة من على عينيه، وكان الآخر قد خرج. وبقي لهنيهة لايرى رغم عينيه

المفتوحتين. وصعد السلم وهو يجر قدميه جرا، تاركا وراءه رائحة السرداب العفنة. وراح الدم يسري في الأجزاء المسمرة من يديه. وعلم من المصباح المشتعل في الباحة أن الوقت هو الليل. ولم يعرف ما إذا كانت هذه هي الليلة الاولى أم الثانية؟ حاول أن يتذكر اليوم فلم يستطع. وفتح له الرجل أحد الأبواب ودخل، أشر له بالجلوس على كرسي أمام المكتب ففعل. لم يستطع أن يميّز ملامح الرجل الجالس وراء المكتب بسبب الضوء القوي المسلط على وجهه، قال الرجل الجالس وراء المكتب:

– دكتورمهدي، أنا أتحدث اليك ليس بصفة موظف أمن، بل كعضو في الحزب. قبل كل شيء أنا آسف للمعاملة السيئة من قبل رجال الأمن، إنهم في كل مكان من العالم يعاملون المرء بنفس الطريقة، حتى في الدول الاشتراكية المتقدمة جدا. هذه هي متطلبات الثورة يا دكتور، وانت تعرف هذه الأمور أحسن مني بكثير، فنحن في الواقع تعلمنا منكم الكثير. أرجو أن نتوصل الى التفاهم فيما بيننا، ولا سيما إننا نخدم نفس القضية التي تناضلون من أجلها، ولذلك فما هو الداعي لوجود حزبين إشتراكيين في بلد واحد؟ هل رأيت في حياتك محلة فيها مختاران؟ لا أريد أن أطيل عليك الكلام، ولكنني أكتفي بعرض الحقيقة حتى تراها بأم عينيك. تفضل، لقد سجلنا لقاءات الرفيق النائب على الفيديو يوم أمس. وشغل الجهاز. بعد هنيهة بدأ الضوء يتسرب الى شاشة التلفزيون، أكتملت الصورة، بدأ المذيع يعلق: الرفيق المناضل صدام، نائب رئيس الجمهورية، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الأشتراكي يزور كل من البلدين الصديقين الأتحاد السوفييتي وكوبا... وتلاحقت الصور... بريجنيف وصدام يتعانقان... فيدل كاسترو يقود السيارة بنفسه والى جانبه الرفيق النائب....:

– أعتقد هذا يكفي.

قال ذلك وهو يطفيء الجهاز، ثم أضاف:

–هل رأيت يا دكتور؟ إننا نريد أن نوحد حزبينا على غرار المانيا الديمقراطية وكوبا، هذه فرصة نادرة لاتتكرر. إننا يجب أن نستفيد من دروس التاريخ. ثق إننا لانستطيع التدخل في شؤون الأمن. القضية كلها تنتهي بتوقيعك على الاستمارة، كلنا نعمل من أجل هدف واحد، والآن، هل نبدأ؟

لم ينطق مهدي. قال الموظف الجالس وراء المكتب بعد أن أشغل سيكارة بغضب:

– أنا أديت واجبي يا دكتور، ذنبك على جنبك، والآن سيتفاهم معك الأخوان.

مسكه الرجل الواقف وراءه من ساعده الأيمن وسحبه بقوة ثم دفعه الى الخارج بركلة قوية على مؤخرته، وقبل أن يسقط على الأرض، تسلمه ثلاثة رجال كانوا يقفون وراء الباب. وراح الأربعة يتقاذفونه كما لو أنه كرة، الى أن قادوه الى السرداب مرة آخرى. أضاء أحدهم المصباح. ولأول

مرة يرى السرداب. وقعت عيناه على سلاسل حديدية من السقف وأدوات تعذيب بدائية وحديثة ويقع دم على الجدران والأرض. وفي أحد الأركان شبح إنسان مكوم على الأرض قرب صفيحة للفضلات. لايدري لماذا تذكر صالح في هذه اللحظة. قال الرجل الذي دفعه الى هنا:

– هذه كانت علقة بسيطة جدا وإن مرحلة التعذيب الحقيقة لم تبدأ بعد. هناك إعترافات خطيرة عليك، مازالت أمامك الفرصة للعودة الى جادة الصواب، فلماذا لاتوفر على نفسك هذه الإهانات والتعذيب يا استاذ؟ أنت دكتور وإنسان مثقف ومحترم وصاحب عائلة، لماذا تنزل الى مستوى هؤلاء الغوغاء، أنظر، هذا هو أحد الصامدين من جماعتكم، ولكن ثق أنه لن يخرج من هنا إلاّ وهو جثة هامدة. على كل حال إننا نمنحك الآن آخر فرصة، عليك التفكير خلالها بجد، سنعود اليك بعد نصف ساعة.

وقبل أن يهموا بترك المكان، قال أحدهم:

– دكتور، فكر بعائلتك.

أشغله الفضول لمعرفة الإنسان الملقاة على الأرض في الزاوية. وعندما تأكد أنهم أقفلوا الباب، وقف في مكانه بصعوبة وراح يتحسس أجزاء جسمه، ثم جرجر ساقيه باتجاهه. وإنحنى يتفرس في ملامح وجهه الأزرق المنتفخ دون أن يتعرف عليه. وضع يده على كتفه وراح يهزه برفق، دون أن ينطق، ولما حركه بقوة أكثر صدر منه صوت خافت يسمع بالكاد:

– ماء، ماء.

وجلب له الماء من حنفية قرب الباب في علبة صفيح صدئة، وراح يبلل به شفتيه المنتفختين، وبعد أن شرب بصعوبة جرعة ماء، قال بصوت خافت ومتقطع:

– من المستحسن أن تبتعد عني.

وانسحب ببطء الى مكانه. وأتكأ على الجدار. قال في نفسه: أنت يا صاحبي قد أجتزت الامتحان، فقد أنتهت المرحلة الصعبة من عملية التعذيب، وأما أنا فما زلت في بداية الامتحان، ثم تساءَل مع نفسهِ هل أنت واثق من نفسك؟ هذا ما لاتستطيع إقراره مسبقا. ترى، لماذا يستطيع البعض تحمل التعذيب حتى الموت؟ والبعض الآخر لايتحمل ذلك؟ من أين يأتي الاستعداد لتحمل الآلام؟ هل مجرد الوعي للقضية يكفي؟ هناك الكثيرون ممن كانت درجة الوعي عندهم عالية جدا، ولكنهم مع ذلك لم يصمدوا. والمسيح الذي تحمل الآلام حتى الموت دون أن يتأوه، هل كان واعيا لقضيته أم مؤمنا بها؟ وما الفرق بين الوعي والإيمان ياترى؟ وانت؟ كيف ترى الأمر، أهو إيمان أم وعي؟ أم أنك تريد أن تحافظ على كرامتك؟ كرامتك المنحدرة من أصلك البدوي؟

كانت آلام حادة في ظهره ورأسه وساقيه تتسرب الى أعماق عظامه. وكان النعاس والخدر يتوغلان الى جسده كموجتين متداخلتين مضطربتين.

جبار

كان جبار في طريقه الى البوابة الرئيسية المؤدية الى قرية حمام العليل، عندما لمح سيارة بيكاب واقفة وراء السياج مباشرة. وكان يعرف أنهم ينصبون كمائنهم عادة بسيارة بيكاب تحمل رقماً موهوما. وفجأة وقف في مكانه بلا إرادة منه. كان المكان خاليا، تغطيه عتمه ما بعد الغروب، التي راحت تتوغل في الزوايا. وعندما همَّ بالرجوع قفز من السيارة رجلان ملثمان توجها نحوه بسرعة فائقة. اطلق ساقيه للريح. التفت الى الوراء فلاحظ أن سرعتهم أقوى من سرعته بكثير، بيد أنه اطمأن الى ان المسافة التي قدرها بأكثر من مائة متر ستحول دون منزل زميله الدكتور عدنان. وقبل أن يجتاز الباب التفت الى الوراء فلم يجد لهما أثرا، وتهالك على مقعد في الممر وهو يقول بصعوبة:

– أم علي سدي الباب.

قالت بدهشة وهي تسد الباب بحركة لا إرادية:

– إن شاء الله خير جبار، ماذا بك؟

وخرج عدنان من غرفة النوم. وكان قد ترك المستشفى قبل أيام بعد أن هدأت النوبة القلبية التي إنتابته مؤخرا. قال واضعاً يده على كتفه:

– جبار، هؤلاء فاشست. لقد طوقوا الكلية من جميع الجهات. سيلقون عليك القبض حتى لو طرت الى السماء. ألم تر كيف مسكوا مهدي؟

استفسر جبار بدهشة:

– ماذا؟ أخذوا مهدي؟

– أين كنت أنت؟ لقد أخذوه قبل حوالي الساعة.

قال وهو يتنفس بصعوبة:

– فعلوها إذن أولاد الحرام. خرجت الآن قبل دقائق من المحاضرة وذهبتُ لأتمشى، فهجم عليَّ رجلان من الأمن قل لي كيف أخذوا مهدي؟

قالت أم علي وهي مازالت واقفة في مكانها:

– الله ينتقم منهم، هيا إذهبا للهول سأجلب لكما الشاي.

قال عدنان وهما يتوجهان الى الهول:

– كان في طريقه الى الموصل مع اثنين من عمال قسم الانتاج الحيواني، فأوقفهُ إثنان من

أفراد الأمن قرب البوابة الخلفية، وأخذاه مع سيارته تاركين العاملين في الشارع.

– غريب، لقد أكدنا عليه أن لايسافر هذه الأيام إلى الموصل.

قال عدنان وهو يمسك بيد ابنته الصغيرة ويداعب بيده الأخرى رأسها:

– جبار، أنا لا أريد الآن أن أثبط من عزيمتك أو من معنوياتك وكما تعلم كنت أنا أيضاً في صفوفكم، وربما أنا أقدم منك بكثير، ولكن أسمح لي أن أقول لك بكل صراحة، ليس هكذا يكون النضال يا جبار. إن ما تقومون به عمل صبياني لا أكثر. أنتم تعرفون جيداً أن الحملة ضدكم قد بدأت منذ أكثر من سنة، وبدأ التمشيط من البصرة ماراً ببغداد الى أن وصل الموصل، وجريدتكم العلنية ممنوع شراؤها من الأسواق منذ عدة أشهر، فماذا كنتم تنتظرون طيلة هذه الفترة كلها؟ هل من الممكن أن نسمي كل هذا سياسة؟ أم جهل وغباء؟ ثم من هم هؤلاء؟ أليسوا هم حصيلة أخطائكم وجهلكم؟ أنا لا أريد أن أبرر موقفي، فهو متخاذل، ولكنني لم أنتم اليهم تحت التعذيب أو التهديدات، لقد حولتني الظروف الى إنسان انتهازي، أردت أن أعيش وأعيل عائلتي. إسمي في الحصاد ومنجلي مكسور، أدفع الإشتراك الشهري ولا أحضر أي إجتماع. وحالما أحال الى التقاعد بسبب المرض، سأترك هذا البلد الذي يعامل فيه الإنسان كحشرة.

جلبت أم علي الشاي وصحنا من الكعك:

– كافي عاد عدنان، هل تريد أن تدخل المستشفى مرة أخرى؟

– زين، زين، أم علي، سوف لا استرسل في هذا الموضوع، والآن يجب أن نحل مشكلة جبار. والآن ماذا قررت، هل تريد أن تعلن العصيان وتلتجيء الى الجبال؟ أنا استطيع أن أوصلك بسيارتي هذه الليلة الى أي مكان تريد،

شيخان، أتروش، دهوك، ولكن، هل ستحل المشكلة بمفردك؟ هل تريد أن تختفي؟ تفضل، سأوصلك الى أي مكان تريد، وإذا رغبت سأوصلك الى عشيرتي، سيؤونك الى الأبد، ولكن هل بإمكانك أن تجمع الفلول؟ أنتم نسفتم كل الجسور يا جبار. وعملية إعادة بناء الجسور ستحتاج الى عمل دؤوب طويل، فإذا كنت تستطيع الخوض في مثل هذا العمل، فأنا سآخذ بيدك. صحيح أنهم أخذوا جسدي، ولكن قلبي معكم. المهم هو أن تحدد موقفاً حاسما، وإلاً فإن البقاء معلقاً على هذا الشكل لايجلب لك سوى ما جلبه لمهدي.

كان جبار بوجهه المستطيل الذي تعلوه نظارة طبية ، وشاربيه الداكنين قد أطرق برأسه، يبدو كما لو أنه في عالم آخر، قال بعد أن رفع رأسه:

– أنا حائر يا عدنان، إن كل ما تقوله صحيح، ولكن، ماذا يفيد الكلام الآن؟ لقد قلنا ذلك قبلك، ثق لولا الزوجة والطفل لأختفيت الآن عن الأنظار فورا. قام عدنان من مكانه قائلاً:

– سأبدل الآن ملابسي ونذهب الى النادي، لاشك هناك أخبار جديدة.

ولكنني أخشى أنهم يتربصون بي.

قال بصوت صارم:

– لا تخف، أنا معك.

كان جبار يلتفت يمنة ويسرة وهما يجتازان الطريق الذي اصطف على جانبيه صفان من أشجار الكالبتوس العالية. لم يجدوا في النادي سوى المسؤول الحزبي الذي يبدو أنه جاء ليتصيد آخر الأخبار والتعليقات. وجاء بإتجاههما، مشاركاً إيّاهما الجلسة. وبعد أن انتهى جبار من شرب قهوته، قام من مكانه فجأة كأنه تذكر شيئاً وقال:

– يجب أن أذهب الى البيت، زوجتي بإنتظاري، سنلتقي غدا.

قال المسؤول الحزبي:

– يمكنك أن تأتي فيما بعد دكتور حتى ندردش، إننا سنبقى حتى منتصف الليل، وعلى فكرة طردنا جماعة البيكاب من حوالي الكلية، لذلك فإن الطريق الآن مأمون.

تركهما دون أن يقول شيئا. وعندما توارى وراء الباب، واصل المسؤول الحزبي:

غداً سنعقد قران الدكتور.

نظر اليه عدنان بإمتعاض قائلاً:

– يجب أن أذهب أنا أيضاً.

آلام مهدي

وجد نفسه على شاطيء نهر تتلاطم أمواج مياهه الفائضة بقوة، مخترقاً مجراه بين سلسلتين من جبال الصحراء الجرداء. كانت المياه عكرة بلون الغرين. متوحشة، هائجة تحمل أنواع الأنقاض: ألواح خشبية، أبواب، مهود، صناديق، أحذية، جثث أطفال، حصران وكراسي دفعه العطش الشديد للزحف الى النهر، فلطمته موجة قوية، تسرب الماء على أثرها الى فمه. كان طعمه مالحاً يميل الى المرارة. وتناهنت الى أذنه أصوات قوية رافقها تساقط صخور. ولطمته موجة أخرى، باردة أدخلت القشعريرة الى جسمه. كان يقف عارياً على النهر المتوحش. وعندما انتفض في مكانه فاتحاً عينيه، رشقه أحد الرجال الواقفين أمامه بما تبقى من الماء الآسن في قعر السطل. ونفذ الماء البارد الى ملابسه ليلسع جلده.

كان أحدهم متأنقاً جداً، قال بسخرية:

– دكتور، آسفين جداً لأيقاظك من النوم العميق، والآن ماذا تقول؟ إن فترة النصف ساعة قد انتهت.

ضغط على أسنانه بقوة ليحول دون الاصطكاك، ولكنه لم يستطع أن يتغلب على الرجفة التي داهمته بقوة. وبعد أن ينس الرجل المتأنق، قال:

– يظهر أن الدكتور يريد أن يخرج من هنا بطلا.

جلس على مقربة من مهدي، قال بعد أن إلتفت الى أحد الواقفين وراءه:

– أبو زنبور جاء دورك.

تقدم رجل طويل، عريض المنكبين، ينحدر شارباه الى جانبي فمه المقوس، ومد ذراعيه الطويلتين الشبيهتين بذراعي غوريلا الى مهدي الذي كان متكئاً على الحائط، ورفعه الى أعلى بقوة وسرعة كما لو أنه يرفع ثقلاً خفيفا، ثم ألقاه على الأرض قرب قدمي الرجل المتأنق. وعندما ارتطم بالأرض أحدث صوتاً مدوياً، ردد القبو صداه ثم أعقبته آهة موجعة صدرت منه بصورة لاإرادية.

وضع الرجل المتأنق حذاءه اللماع على رأس مهدي، قائلاً ببرود:

– لاتخف دكتور، إن هذه السقطة من فوق هي من عمل رياضي خبير، وهي لاتسبب أي كسر، سواء في الضلوع أوالأطراف، ثم إننا يجب أن نعيدك الى الكلية وانت في حالة سليمة.

وعندما أراد أبو زنبور أن يقيّد يديه من الخلف قال هذا:

– لا يا أبا زنبور، سنعطيه آخر فرصة، ربما يستيقظ ضمير الدكتور.

تذكر مهدي جده الشايب، وهو يتحسس بضغط الكعب على صدغه، ولم يعد يرتجف من البرد، بل أحس بالعرق يتصبب من جسده وبالدم يغلي في شرايينه، قال بحقد وبصورة لاإرادية:

– جبناء، لن أخرج من هنا إلاّ وانا جثة.

– لنر إذن الذي سينتصر، واصل صمودك.

قال ذلك بلهجته الباردة الميتة.

تقدم أبو زنبور ووضع قيداً حديدياً في معصميه من الخلف ثم ربطه بحبل كان يتدلى من السقف. وكان ثمة شخص آخر أضخم منه، راح يسحب الحبل الى أن ارتفع مهدي حوالي المتر من الأرض. شعر بساعديه كما لو أنهما يقتلعان من جذورهما. وانهالت عليه الضربات من جميع الجهات بالصوندات. وكان أحدهم يمسك بجسمه المتأرجح ويدفعه بقوة ليرتطم بالجدار. كانت الضربات الأولى مؤلمة جدا، بيد أن الخدر كان يتسرب الى جسمه بالتدريج وتخف حدة الضربات التي راحت لاتؤلمه بعد. ومما زاد في عناده، موقف الرجل الذي يشاركه الزنزانة.

بعد فترة، لايعرف مداها، كفوا عن الضرب، قال أحدهم:

– سنأتيك بعد ساعة، فكر جيدا.

علق آخر:

– هذه أيضاً كانت سلاطة خفيفة يا دكتور.

الوقت يمر بطيئا، ثقيلاً أو يتوقف نهائياً عن الحركة ليتحول الى شيء لانهائي يوخزه بآلام حادة. عندما عادوا لم يداهمه الخوف، كان قد فقد مشاعره وإحساساته أو هكذا بدت له الأشياء:

– والآن ماذا قررت؟ أما زلت مصراً على الموت؟ لا، لا، يا دكتور، إننا لن نقتلك تحت التعذيب، لن نعطي لأجهزة إعلامكم في الخارج مادة خصبة للتشهير بنا، ثم إننا إنسانيون، ولكننا سنرغمك على البيعة.

فك أبو زنبور القيد من معصميه، وشده على عمود خشبي ملاصق للجدار، فك حزام مهدي وانزل بنطاله وسرواله الداخلي الى الأسفل ومد يده الى قضيبه، وهو يقول ضاحكا:

– أنظروا يا جماعة، هل رأيتم سلاحاً مثل هذا؟ إنه محترم حقاً يا دكتور.

علق آخر:

– ألاّ تعرف أن الدكتور من البادية، أنه سلاح بدوي.

لم يشعر بأي حرج لما يجري، بل أن شيئاً من الكبرياء أعطاه زخماً آخر للتحدي، وتحولت عنده مسألة الصمود الى قضية أخلاقية بحتة تمس الكرامة الشخصية، وفي لحظة سريعة تحول الى إنسان قروي بدائي يحقق ذاته في العنف والعذاب، وتداخل أمامه كل من بعدي الزمان والمكان

وتحولا الى طيف نقله بعيداً الى حيث منبت الأجداد، تحول الى كتلة صخرية ملقاة في أعماق الصحراء، لا الشمس المتوهجة في كبد السماء تحرقها ولا العواصف الجنوبية المحملة بذرات الرمال توجعها. وكان الشايب يقف وراء الصخرة الملتهبة وعباءته ترفرف مثل بيرق دون أن يكترث بالعاصفة الرملية وهو يقول:

– مهدي ما يجيب خزي للعائلة، مهدي ابن عرب، خلي يدرس بالمدينة.

كان ذلك يوم كان الزغب يغطي وجه مهدي، حيث أكمل دراسته بالتفوق في القرية وراحت العائلة تتردد في إرساله الى المدينة لإكمال دراسته، وكان أن حسم الشايب الأمر كعادته وذهب الى المدينة لمواصلة الدراسة.

– تشوف هاي الصخرة يا مهدي؟ أريدك تصير مثلها، ما تهاب الموت، الموت يجي مرة واحدة يا مهدي.

وتحول مهدي الى بدوي ملثم ينتصب في وجه العاصفة الرملية، لا الشوك يؤذي قدميه العاريتين ولا هجير نار الرمال يحرقهما، وتحول جلده الى جلد البعير فعلا. أي عاصفة هي تلك التي تعيق البعير من مواصلة السير في الصحراء؟

– والآن لنر مدى تحمل هذا السلاح؟

قال أبو زنبور وهو يشد القضيب بسلك كهربائي ينتهي طرفه عند محولة صغيرة. شدً على أسنانه بقوة وأغمض عينيه ليلتقي بالشايب الواقف وراء الصحراء، ولكن الصحراء هذه المرة كانت قارسة البرودة. أشار الرجل المتأنق بحركة من رأسه الى الزر. فتح أبو زنبور التيار الكهربائي ثم سده بسرعة. أطلق مهدي آهة لا إرادية مهتزاً في مكانه. وقلص الألم الحاد عضلات وجهه التي أحس بها كما لو أنها قد تخشبت. بعد هنيهة شعر براحة. وكان يتصور أن الألم أشد بكثير مما حصل، وهنا عاد البدوي مرة أخرى وأطلق صرخة حادة شقت سكون القبو وأرعبت جلاوزته:

– هذا كله لايفيدكم أيها الجبناء، قررت أن أموت.

قال أبو زنبور بغضب:

– هذه كانت نتلة صغيرة يا دكتور، انتظر الى أن تأتيك النتلة الثانية، عندها سأرى حالك.

ثم إلتفت الى الرجل المتأنق ينتظر منه الأشارة. قبل هذا ببروده المعهود:

– دع كل هذا وفك السلك، إن هذا بدوي. التعذيب لايفيد معه.

قام من مكانه بتثاقل قائلاً:

–خذوه الى غرفة الإدارة وداووا جروحه واجلبوا له الطعام الذي يشتهيه.

حيرة جبار

علم جبار أن العميد غائب عن الدوام، لذلك عندما جاء المسؤول الحزبي طالباً منه ملء إستمارة طلب الإنتماء واعداد التقرير المطلوب، قال:

– إنني اتفقت مع السيد العميد حول الموضوع، ولايمكن أن أنقض رأيي.

كان قد اتفق مع زوجته أن تسافر لوحدها الى أهلها على أن يلتحق بها هو في وقت آخر.

– حسن، سأنتظر يوماً آخر.

عندما انصرف المسؤول، ذهب هو الى الطبيب وأخذ إجازة مرضية لمدة يومين ثم توجه الى البيت على أن يرافق زوجته ليلاً الى بغداد. حين فتح الباب فوجيء بأخيه الأصغر، وبعد أن تعانقا قال الأخير:

– والدتي أيضاً هنا.

إندهش للزيارة المفاجئة، فتساءل بخوف:

– هل حدث شيء عندنا في البيت، وأحمد، لماذا لم يأت معكما؟

عبثاً حاول الأخ إخفاء ملامح الحزن من على وجهه:

– ربما يأتي بعد أسبوع.

واندفع الى الداخل بسرعة، كانت والدته في طريقها لإستقباله. إمرأة منتصبة القامة، لفت رأسها ورقبتها بفوطة سوداء، يبدو وجهها الأسمر الطويل ذي التجاعيد العميقة من خلال الإطار الأسود، كئيباً تتخلله بقايا مرح فطري. تعانقا بقوة، قالت مخفية إنفعالاتها:

– أحمد مريض شوية وأخذ إجازة مرضية.

– والوالد؟

صحته جيدة، بقي حتى يعتني بأحمد.

قال كالواثق من كلامه:

– أحمد مو مريض يا ماما، قولي لي الحقيقة. ليس من عادتك أن تفاجئينا بالزيارة بهذا الشكل.

– سمعنا هناك حملة إعتقلات في الموصل فجئنا لكي نطمئن عليك، الحمد لله كل شيء على مايرام.

هزّ رأسه بألم:

– لا يا ماما، ليس كل شيء على مايرام. كادوا أن يلقوا علي القبض يوم أمس، ولكنني أفلتُ منهم بإعجوبة.

ضربت بيمناها ظهر يدها اليسرى بقوة:

– جبار عيني، لاتقل ذلك. ألا يتركوننا وشأننا؟ ألا تقول لي ماذا يريدون منكم؟

– الكلام لايفيد الآن يا ماما. إننا سنسافر اليوم كلنا الى بغداد. سأرسل مونيكا الى أهلها. وبالنسبة لي، إما سألتحق بها في وقت لاحق أو أختفي عن الأنظار الى أن يفرجها الله. أنت تعرفين مهدي صديقي، ألقوا عليه القبض منذ يومين، حتى هذه اللحظة لانعرف عنه شيئا.

جلست الأم في أحد الأركان وهي شبه مغمى عليها، قالت وهي تخرج الكلمات من فمها بصعوبة:

– «الله ينتقم منهم، ابني جبار آني ما أتحمل بعد. أحمد، أخوك أحمد مو مريض. أخذوا أحمد منذ أسبوعين ولانعرف عنه شيئاً حتى الآن».

وأجهشت في البكاء، كانت مونيكا تتناول منذ أشهر أقراصاً مهدئة بناءً على طلب الطبيب، إذ أنها عند بداية العام الدراسي أصيبت بإنهيار عصبي حين رأت حادث اغتيال في مركز مدينة الموصل. التقطت حبة من القنينة الصغيرة وجلبت قدحاً من الماء وهي تناولها إياها:

– عمة، هزا مهديء زين، أبلع بسرعة.

قال جبار كالحالم وقد استبد به الحزن واليأس:

– كيف القوا عليه القبض.

قالت وهي تضرب على ساقها:

– في الشارع ابني، في طريق العودة الى البيت. وبقينا ليلة كاملة نبحث عنه، ثم وصلنا الخبر عن طريق صديقه حسين، ابني جبار، أخاف أن لا أراه، إنهم يقتلون الناس.

قضى جبار نهاره كله في البيت جالساً لوحده في غرفته، تتضارب آلاف الأفكار في رأسه، دون أن يستطيع الاستقرار على فكرة أو رأي معين. فكَر بمصير أخيه وبمصير مهدي، فكر أن يتصل بصالح، ولكن كيف؟ وحتى إذا اتصل به، فماذا يقول له؟ وحتى إذا اختفى، فأين وإلى متى؟ كيف يترك الوطن، من المستحسن أن ينتظر الى أن يخرج مهدي من السجن فيلتقي به ويقرر مصيره في ضوء ما قرر هو. إنه الآن بحاجة الى أي إنسان حتى يناقش معه مشكلته. أراد أن يقرأ فلم يستطع. كان النهار يمضي ببطء غريب وهو أشبه بكابوس لانهاية له. عندما جلبت

لهم زوجته الشاي وشرائح من الجبن والبيض المسلوق، كانت الساعة تشير الى حوالي السادسة مساء. وقبل أن تضع الأطباق على المائدة، جلب أنتباهها شيء وراء النافذة، فإلتفت جبار بصورة عفوية الى هناك. كان عدنان يمسك كعادته بيد ابنته، وهما يتوجهان اليهم. قفز جبار من مكانه بسرعة لإستقباله، قال عدنان بهمس وهو يهم بدخول البيت:

– سيارة مهدي واقفة أمام بيته، أعتقد أنهم جاؤا به.

قال بدهشة:

– هل أنت متأكد أنها سيارته؟

سؤال غريب، ألا أعرف سيارة مهدي؟ أنا ذاهب اليه الآن، هل تريد أن تأتي معي؟

– يمكنك أن تذهب اليه الآن، وأما أنا فسأزوره فيما بعد.

كرامة مهدي

مرَّ أكثر من ساعتين دون أن يأتي أحد، قال في نفسه وهو يجيل نظراته في أنحاء الغرفة المؤثثة بالأثاث الفاخر: هذا تعذيب من طراز آخر. كان يضرب الأخماس بالأسداس، لماذا كفوا عن التعذيب فجأة؟ هل وصلتهم تعليمات من فوق بهذا الخصوص؟ هل حصل عندهم تغيير في السياسة؟ أو ينسوا منه بعد أن أصرَّ على الصمود؟ هل هناك حملة تضامن عالمية ضد الإرهاب في العراق، فرضخوا له؟ كان مقعده وثيرا، شعر بالنعاس، وتمنى أن تتهيأ له الفرصة كي يستغرق في نوم عميق. كان جسمه أشبه بقطعة لباد. كانت موجات الآلام تأتيه من مكان بعيد في أعماق جسمه. وكان طنين حاد متواصل يصدر من مكان مجهول في رأسه. قدموا له الأكل فلم يجد له طعماً رغم جوعه، ولكنه امتص السيكارة بشراهة. بين حين وآخر تمر موجة من البرد بعظامه، فيقشعر بدنه للحظات.

ترى، هل سينقلونه الى مدينة أخرى؟ هل طلبوه في بغداد؟ هل سيذهبون به الى أقبية تعذيب جديدة هناك؟ هل بلغوا أهله بوجوده هنا، وأولاده؟ وأخيراً انفتح الباب، دخل الرجل المتأنق لوحده، مدّ له يده يصافحه على غير عادته، قال وهو يجلس الى جانبه ويقدم له سيگارة:

– دكتور، أنا أهنئك على صمودك، والإنسان الصامد يجب أن يحترم، ولكن المشكلة لم تنته بعد، نحن هنا مجرد أدوات نقوم بتنفيذ التعليمات الصادرة الينا من الفوق. القرار أنك يجب أن تنتمي أو تقدم على الأقل تعهداً بعدم الاشتغال في السياسة، والمشكلة هي أن نرغمك على التوقيع بدون أن نصفيك، فإذا حدث لك شيء فاننا سنتحمل المسؤولية، ولذلك فإنني جئتك لآخر مرة راجياً منك أن تعيد النظر في موقفك، والا فإنهم سيضطرون لإستعمال أساليب أخرى لإرغامك على التوقيع، فلماذا تخلق لنا ولك تعقيدات جديدة نحن في غنى عنها؟

هز رأسه بصعوبة وأراد أن يقول شيئا، ولكن لسانه خانه، كان فمه متشنجا، ولكنه مع ذلك قال بإصرار وهو يخرج الكلمات من فمه بالكاد:

– قلت لكم أنكم لن تحصلوا مني سوى على جثتي.

قفز الرجل المتأنق من مقعده بإنفعال تاركاً الغرفة. بعد هنيهة دخل أبو زنبور ورجل آخر يمسك بيد صبي. في أول الأمر بدوا له كالأشباح، ولكنه عندما ركز نظراته فيهم، وجد أن الصبي إنما هو ابنه الكبير، ماذا؟ هل جاؤا لزيارته؟ كان ابنه في الثانية عشر من عمره، صبي جميل يشبه خاله الذي مات قبل أعوام لسبب مجهول. عندما أراد الصبي أن يهجم على أبيه ليعانقه، مسكه الرجل بقوة، فضربه هذا عدة ضربات سريعة على رجله. وكان أن ألقاه على الأرض،

فانبطح الصغير على بطنه، بينا وضع الرجل رجله على ظهره ضاغطاً عليه بقوة. جرى المشهد كله بسرعة أمام عينيه، أراد أن يقول شيئا، ولكنه لم يستطع، أراد أن ينهض فشعر بالعجز. انتصب أبو زنبور أمامه مثل الجدار قائلاً:

– دكتور، المسألة الآن مسألة شرف، وهذه آخر فرصة، يحصل كل شيء أمام عينيك وعلى هذه السجادة الإيرانية، فماذا تقول؟

كان الطفل يئن من الألم ويصرخ ويضرب الأرض بقدميه. صب النهر المتوحش في الصحراء، وكانت الصخرج الوحيدة قد تحولت الى جمرة متوهجة راحت تحرق عباءة الشايب.

سرت في أعماق مهدي قوة خفية دفعته بلا إرادة منه للتوجه صوب ابنه، وقال بلهجة المغلوب على أمره:

– يا وحوش يا كواسر، دعوا الولد، هاتوا بالقلم والورقة.

جبار يزور مهدي

الظلام يلف كل شيء، والرياح الباردة تهز أشجار الكالبتوس بعنف، وهي تحدث وشوشة كئيبة تختلط بأصوات غريبة تشقُ صمت الليل الغامض، وثمة مصابيح ناعسة تهتز أمام الريح وتتعانقا بين فينة وأخرى مع أغصان الكالبتوس المنحنية أمام النور. وفي البعيد تعكس السحب المطلة على مدينة الموصل الأضواء، فتبدو كما لو أنها أطياف متحركة.

بدا له منزل مهدي حزينا، كئيباً تحت ظلال شجرة الكالبتوس العملاقة. رفض أن ترافقه زوجته أو والدته الى هناك. وقف أمام البيت برهة وهو يلتفت حواليه وكأنه يرى هذا المكان لأول مرة، ثم قادته قدماه وشيء ما يعصر قلبه ويضخ الدم بقوة في شرايينه.

كان مهدي ممدداً في فراشه، مغمض العينين، منتفخ الوجه، وكانت زوجته جالسة الى جانبه وقد إلتصق بها الصبي الذي لايزال يعاني من آثار الصدمة. وضع جبار يده على رأس مهدي عانقه بقوة قائلاً:

– سلامات مهدي، سلامات، الحمد لله على السلامة.

فتح عينيه بصعوبة، وعندما التقت عيناه بجبار، أجهش في البكاء:

– جبار، لقد أسقطوني بأسلوب دنيء.

قال وهو ممسك بيده:

– لاتهتم مهدي، الذنب ليس ذنبك. أنت في كل الأحوال حافظت على كرامتك.

قال مهدي وهو يخرج الكلمات من فمه بصعوبة:

من يصدق كل هذا؟ حدثني عدنان عن وضعك، ماذا قرَرت؟

ثم هز رأسه مواصلا، وكأنه ينفي شيئاً؟

– على كل حال لاتقل لي ما قررته، ولكنني يجب أن أقول لك ما فعلته أنا لكي تعرف كيف تتحرك. لم أوقع على طلب الانتماء، وانا أعرف جيداً أنهم أجلوا ذلك الى وقت آخر، لقد وقعت على تعهد بعدم الاشتغال في السياسة. إذا أردت أن ترضخ لهم مثلما فعلت أنا، نحن بشر يا جبار، فأكد لهم بأننا قد تركنا العمل السياسي منذ الصيف الماضي، وعلى فكرة أنهم يعرفون بأننا كنا نعمل في هيئة واحدة. أما بالنسبة الى صالح فإنهم لايعرفون عنه شيئا.

قال جبار كما لو أنه تحت وطأة كابوس:

– كنت أتوقع كل شيء، أما أن يبلغ بنا الأمر هذا الحال، فكنت لا أتصوره.

وداعاً نينوى

غداً تبدأ العطلة الربيعية، واليوم هو آخر يوم لإثبات الوجود في الكلية. كان من الممكن أن لايثبت وجوده سواء اليوم أو يوم أمس، إذ أن معظم المدرسين قد غادروا المدينة، بيد أنه، أراد ولسبب لايعرفه أن يفي بوعده في اللقاء بالدكتور خليل. إنه الآن طليق كأي عصفور. أخته سافرت. الأثاث البسيطة تخلص منها بسرعة وبثمن لا بأس به. السيارة لايستطيع بيعها في كل الأحوال. سيتركها عند صديق أمين.

الساعة تشير الى الثامنة صباحا. البيت فارغ تماماً سوى من ثلاجة تركها لصاحب البيت تسديداً لإيجار الأشهر الثلاثة القادمة. ثمة جرائد ومجلات متناثرة هنا وهناك وثلاثة كراسي غير صالحة للبيع. تمكن أن يموه الذين اشتروا منه الأثاث، أنه سيستلم أثاثه الجديدة القادمة من الخارج قريبا، وانه يبحث عن بيت جديد آخر وأكبر وفي منطقة أجمل.

الصباح وراء النافذة منعش وجميل، وأشعة الشمس الساطعة تضفي على شجيرات البرتقال والرمان ألواناً شفافة من الأخضر الفاتح والداكن الممزوج بظلال وردية، زرقاء وبرتقالية. أكل شريحة الخبز الطازج الذي جلبه من الخباز القريب بشهيّة نادرة، وأرتشف قدحاً آخر من الشاي وتناول عدة ملاعق من اللبن المتخثر ثم أجال نظراته في أنحاء البيت كما لو أنه يراها لأول مرة. كانت تلك هي النظرات الأخيرة. وعندما أوصد وأدار المفتاح في المزلاج، أحس بإنقباض. وقف هنيهة يتأمل شجيرات الحديقة الصغيرة، ثم أغلق الباب الخارجي عارجاً الى أم سعاد. كانت أم سعاد التي تزور أخته باستمرار إمرأة طيبة تأكل بشهية وتطبخ أنواع الأكلات الموصلية اللذيذة، وفي كل مرة تجلب لهم صحناً أو صحنين من طبخها الشهي وهي تقول: أهل موصل كرماء جدا، ولكن ليس مع كل من هبَ ودب، إنهم كرماء مع الطيبين. عرفت أم سعاد بفطرتها أن الأمور في بيت الدكتور صالح غير طبيعية، وحين تسلمت المفتاح منه لم تقتنع بحججه، التي وجدتها واهية، قالت والدموع تنهمر من عينيها:

– دكتور أنت أخي، أنا أعرف أننا لن نلتقي، لقد خسرناك، الله ينتقم منهم، سوف لاننساكم.

قال صالح بلهجة واثقة:

– الجبال لاتلتقي يا أم سعاد، وأما نحن فلابد أن نلتقي، سلّمي على أبو سعاد.

– الله يسمع من فمك دكتور.

واختفت وراء الباب. وبقي وحيداً في الزقاق. بخطوات وئيدة توجه الى سيارته الواقفة بصمت أمام البيت الذي انتهت علاقته به. وقريباً ستنتهي علاقته بهذه السيارة أيضاً. هذا الزقاق الملوث الذي يخرقه جدول من المياه الآسنة والقاذورات والذي يكرهه أشد الكره، راح يحبه الآن بشكل عجيب. وهاهو سور نينوى الشامخ الذي كان يتمشوا فوقه ساعات في الليالي المقمّرة، يطل عليه

بصمت وخشوع، كأنه يريد أن ينفض عن كاهله تراب آلاف السنين الغابرة ويكاد يقول له: الى اين أيها المتشرد المتعب؟

أجل، الى أين يا صالح؟ ها هو سور نينوى يتحدث إليك لأول مرة عن ماضيه الغابر، لماذا يتحدث اليك هذا اليوم بالذات؟ ألم تسكن قبالته منذ ثلاث سنوات؟ لماذا لم تهتما ببعضكما من قبل؟ لاشك أنه هو الآخر يعرف أنك ستتركه هنا وحيداً مجهولاً يغطيه تراب آلاف السنين. وهذا هو الهر الأغبر، صاحبك الذي كان يتبختر دوماً فوق سياج الحديقة وينام في الليالي الباردة داخل محرك سيارتك الدافيء. إنه يتشمس الآن مكوراً نفسه فوق السياج، ينظر إليك بعينيه العسليتين الماكرتين منتظراً منك تحيّة الصباح. إن عنجهيته تأبى إلاّ أن تبادر أنت بالتحيّة، ولكنه اليوم على غير عادته حياك مرتين وقفز فوق السيارة بحالة عصبية، محركاً ذيله الطويل بشكل غير معهود. وظلّ واقفاً فوق السيارة، الى أن مررت أصابعك برفق على ظهره المنحني. ترى، هل سيرى هذا الزقاق مرة أخرى؟ ومتى؟ وتجسم السور أمامه مرة أخرى، وتصوره بأبراجه العالية وأحجاره المنحوتة بعناية وقد نفض عن كاهله تراب القرون السحيقة. ومرّت من أمامه جحافل البابليين والميديين وهي تهز الأرض هزاً تحطم العربات الآشورية وفرسانها المرعبين بلا رحمة. وتهدم أسوار نينوى المنيعة وقصورها الفخمة. والآشوري يقاوم، ولكن عبثاً ودون أن يفكر في الهزيمة، إذ الهزيمة مفردة لايعرفها الآشوري، فخير له أن تسيل دماؤه على تراب نينوى من أن تلعنه آلهتها الى الأبد. وتتحول نينوى الى مقبرة، ويذهب البابليون والميديون بأكاليل الغار الى حيث أتوا. وكان الناس لايعرفون مَن الذي انتصر.

اتخذ مكانه أمام مقود السيارة. كان الغراب الضخم العجوز، الذي يعتبر نفسه سيد الطرف، يتردد من الاقتراب من تل النفايات، ولكنه الآن، وبعد قفزات ونيدة اتخذ مجده فوق قمة التل وراح ينبش بمنقاره الأسود الغليظ بنهم، دون اكتراث بالكلب المتسكع الذي يكاد يراه على مقربة من هذا الكنز الذي لاينضب. وانطلق الى شارع الزهور، وفي منطقة الدركزلية خفف من سرعته وهو يتأمل المارة والباعة المتجولين والدكاكين المزدحمة. كانت الأشياء كلها تبدو له جديدة وجميلة ومحببة الى نفسه. وقبل أن يقترب من بوابة الجامعة، لمح رشودي وهو يمتطي قصبة ويركض بسرعة فائقة، ملوحاً بيده اليمنى كما لو أنه يريد المحافظة على متن جواده الموهوم.

ستبقى تتجول يا رشودي في شوارع المدينة، حراً طليقاً كالروح الهائمة دون أن يتمكن أحد من الإمساك بك، ستحلق في سماواتك وتتنقل بين الأرض والمريخ دون أن تتمكن قوة من كسر جناحيك. وأما أنا فيجب أن أتوارى عن الأنظار. لن أتمتع بالحرية التي تتمتع بها أنت. سوف تنقلب الأشياء وتغير مضامنيها. تأمل أشجار الصنوبر والكالبتوس وجدران الكلية الصماء، وتذكر أيامه الأولى، واجتاحه إحساس قوي بالغربة، أحقاً هذا هو آخر يوم لوجوده هنا؟

ساحات وحدائق وأروقة الجامعة خالية، إلاّ من نفر قليل من الطلبة، تأخروا عن السفر حتى

يكسبوا وقتاً أكثر بصحبة صديقاتهم. مرّ بغرفة اللجنة الإمتحانية. كانت خالية إلاّ من رئيس أحد الأقسام العلمية. وفي الكافتريا كانت وجوه الأساتذة منشرحة لإستقبال العطلة الربيعية، وهو؟... أين سيقضي العطلة الربيعية يا ترى؟ أين سيكون غداً وبعد غد؟ هل سيسافر الى الخارج؟ أم ماذا؟... هل يستطيع الإنسان أن يقرر مصيره لوحده؟ أم بحاجة الى مشورة إنسان آخر؟ وأي إنسان. لم يجد أحداً يستشيره سوى أمه التي قالت له عند زيارته الأخيرة لها:

– حافظ على كرامتك يا بني.

وقبل أن يسألها رأيها، قرر أن يلتزم برأيها. وهل أنه في طريقه للالتزام بقرارها. والشيء الذي يعرفه حق المعرفة هو أنه قد اقتنع قناعة تامة أنه لم يعد له مكان مع هؤلاء. إنه في كل الأحوال لايستطيع التنفس في هذا الجو الخانق، ولكن الشيء الذي لايعرفه ويجهله كل الجهل هو أنه لايعرف الى أين. كم عجيب شأن هذا الزمن المتقلب. يحمل بين طياته أسراراً ومفاجئات لا يحلم بها أحد. هل كنت تتوقع مثل هذا الشيء قبل ثلاث سنوات عندما كنت تتجول بين أروقة الجامعة وحدائقها، وانت تجهد من أجل إزالة حواجز الغربة بينك وبين وطنك؟ وما أن إلتأمت مع هذه الأرض والتصقت بها كإلتصاق الجذور وتشعبها في التربة الندية، امتدت يد لاتعرف الرحمة واقتلعتك بقوة لتقذف بك من جديد في متاهات الغربة، أنت كنت تعتقد أن زمن الغربة قد ولى، وان المهاجر قد أحرق خيمته ليشيد مكانها بيتاً يستقر فيه الى الأبد.

بعد أن تجول في معظم ممرات الجامعة، عرج الى الكافتريا ليشرب قهوته لآخر مرة وبسرعة ثم توجه بخطوات ثابتة الى غرفة الدكتور خليل، وقبل أن يصل الى هناك، التقيا في نهاية السلم وهو يحمل مجموعة من الملفات، فوقف في مكانه قائلاً بإبتسامة:

– مواعيدك مضبوطة يا دكتور صالح، ليت الكل مثلك.

وبعد أن تصافحا بحرارة قال صالح:

– الحقيقة إنني جئت إيفاءً مني للوعد الذي قطعته على نفسي للإلتقاء بك في هذا اليوم، وأما بقية ما اتفقنا على بحثه، أن سنؤجله الى ما بعد العطلة الربيعية.

قال الدكتور خليل بدهشة:

– ولكن يا دكتور كيف تغيَّر رأيك؟ إنني يجب أن أسلم الأوراق هذا اليوم للجماعة، إنه مجرد توقيع، هيا نتمشى قليلاً في الحديقة.

هبطا السلم والصمت يطبق عليها. استغرق الدكتور خليل في تفكير عميق، ولاحظ صالح أن شحوباً غريباً قد كسا وجهه. وعندما بلغا الحديقة قال خليل بشرود:

– دكتور صالح، إنك لاتستطيع أن تتصور مدى خطورة قرارك.

قال صالح بإبتسامة وهو يتذكر صاحبه الهر الذي طالما كان يصيد الفئران ويلعب معها قبل أن يفترسها، والغراب العجوز ينظر اليه بحسد وغيرة:

– دكتور خليل، أنا أعرف جيداً بأن قراري خطير للغاية، ولذلك جئت اليك كما أتفقنا، حتى نؤجل الموضوع الى ما بعد العطلة الربيعية. لو كانت نيتي سيئة لما جئت للموعد.

احتار الدكتور خليل وراح يضرب أخماساً بأسداس، قال بصوت متوتر:

– أنا لا أفهمك، أنا لا أفهمك يا دكتور صالح، أنت تضحك علينا، أنا لا أعرف ماذا تريد...

اتخذ صالح بسرعة مكانه أمام المقود، قائلاً من خلال النافذة المفتوحة:

– والآن يجب أن أذهب يا دكتور خليل، فأمامي أشغال كثيرة.

انحنى الدكتور مادا رأسه الى داخل السيارة، قائلا بإنفعال:

ولكن الى أين يا دكتور صالح؟ ما هذا التصرف، هل جننت؟ ألا تعرف أنك ستحاسب محاسبة عسيرة لهذا التصرف؟

قال صالح بهدوء:

– جئت فقط كي أقول لك، بأن هناك من يستطيع أن يقول لكم: لا أيضاً.

وضغط على دواسة البنزين بقوة، فانطلقت السيارة محدثة صريراً عالياً وتاركة وراءها سحابة من التراب، وقفز الدكتور خليل في مكانه بصورة لا إرادية، وهو يتابع السيارة بنظراته القلقة الى أن تلاشت وراء البوابة.

عندما أصبحت البوابة وراءه، شعر بعبء ثقيل ليعرج من هناك وبمحاذاة السور الى طريق بغداد– كركوك، أقصر طريق الى هدفه. كان يسوق بسرعة فائقة. بعد دقائق قليلة ترك وراءه أسوار نينوى وبوابة شمش التي كانت تلمع تحت أشعة الشمس الوهاجة. وتبدو من بعيد كما لو أنها مدينة من مدن الأساطير والحكايات الخيالية. كأنَّ شيئاً ما يقتلع من قلبه بقوة وعنف ليترك وراءه فراغاً مليئاً بالحزن العميق. ضغط على جهاز التسجيل ليسمع موسيقاه المفضلة. وها هي أنغام شهرزاد تلف كل شيء كما لو أنها تهبط من أعماق السماء الزرقاء فيبدو كل شيء جميلاً، ناعماً وحالماً يتدفن بسعادة أزلية.

ومن بعيد كانت أسوار نينوى البيضاء تبدو من خلال المرآة كخيط أبيض يتلاشى وراء سلسلة التلال الملتوية المتعرجة المتداخلة، وتهرب بسرعة فائقة بإتجاه مضاد للسيارة. كان بوده أن يلحق بالسيارة ويطير بها بسرعة خارقة للوصول الى هدفه، الى قرية الأجداد الراقدة بصمت على سفح الجبل الشاهق والمليء بالأسرار والتحدي، هناك حيث سيتلاشى الى ذرات لتتسرب الى نسوغ الجذور المتشعبة في أعماق التربة وشقوق الصخور. وخدَّرته رائحة الأرض الندية المشبعة بأريج الربيع القادم من وراء الجبال. ودمدم متنهداً:

– وداعاً نينوى.

لايبزك– ماركليبيرك
١٩٧٩– ١٩٨٠م

رجل في كل مكان

الفصل الأول

الساعة الآن، الصفر...

خطواتهُ مثقلة بعامين كاملين من تعب السبات.. الشارع المنبسط تحت قدميهِ يتزحلق الى الوراء، ليترك هناك باباً حديدياً كبيراً مازال يطوي خلفه عالماً يعيشُ في القعر.. مع كل خطوة تبعدهُ عن الباب الكبير، تتبدد أمامهُ معالم العالم القديم، ولكن ليس الى التلاشي.. الى صُور مُجسَمة عديدة تتفرق وتتجمع لتُعيد نفسها من جديد.

إلتفتَ الى الوراء، كان الباب قد أصبح وراء صفٍ من الأشجار.. هاهو إذن لا يحلم بالأشجار ولا بالشوارع ولا بالبيوت..

ولأول مرة تبدو له الحقيقة جميلة لذيذة كالحُلم..

كانت الأعمدة والناس والمباني تبدو لهُ غريبة، وكأنهُ يفتح عينه عليه لأول مرة.. وتساءَل: «ترى، لماذا لا يتذكر الإنسان يوم مولدهِ؟ أتراه يشبه هذا اليوم؟..».

يكاد لا يُصدِق أنه خارج السور.. هل صحيح أن ذلك الرجل ذا القسمات المتجهمة قال له:

– هيا.. لا تعد إلينا مرةً أخرى؟.

ألسنتان إنتهتا إذن، ولكن كيف ؟ هل إن تلك الفصول والشهور والأيام قد مرَّت وإنقضت بلا عودة؟ أتعتبر تلك الفترة جزءاً من حياته؟ أم هي فجوة هائلة صدعت شجرة عمرهِ وهزتها بعنف حتى تكسر أقوى غصنين فيها..

من صميم غبطةٍ لا متناهية، صعدت حسرة طويلة غلَفت أعماقه بشبكة رقيقة من الحزن.. شعر بالكِبر، بالسنتين اللتين توضعان كصخرتين هائلتين على كتفيه المتعبتين، بخطواته تتجه نحو المجهول.. الى هاوية لا قرار لها.

إطمأن الى أنه مازال دون الثلاثين.. وقبل أن تنشرح أساريره، إنقبض قلبه.

نحو الثلاثين وكل شيء مازال عبث.. متى إذن يستقر.. متى تغمره السعادة الحقيقية كالآخرين؟

...... يلبس بدلة صيفية زرقاء جديدة ليذهب الى
المقهى، يداه في جيبي بنطلونه، يجلس لوحده.. لا
أحد في المقهى، حتى صاحبها.. قدحُ الشاي يأتي
من تلقاءِ نفسه ويستقر على المنضدة أمامه.. طعم

الشاي غريب.. الصور المعلقة على الجدران تنظر
إليه، تغمز له.. تُقهقه.. يلتفت حواليهُ فلا يجد
أحداً، يقف في مكانه.. وينظرُ الى الراقصة العارية
في الصورة وهي تتحرك بدلال.. يريد أن يتكلم
ولكنهُ لا يستطيع، الراقصة في الصورة تفهم مطلبهُ،
وتجتاز إطار الصورة لتقف أمامه بحجمها الطبيعي..
ويمد ذراعيهِ ليعانقها، تستلقي الراقصة على ظهرها
فوق الأريكة الوثيرة تطلب منه أن يضاجعها..
وحين يهم بنزع ملابسه يدخل صاحب المقهى..
ويخرجُ ليسير عارياً... صاحب المقهى
هو نفسه ولكنه لا يشبهه.. وكذلك الشارع..
أهذا هو الشارع الذي كان يحلمُ بهِ دائماً؟

والآن يبدو له ذلك العالم الراكد وراء الباب الكبير حلماً.. قال له أخوه وهو في غمار فرحة عظيمة:

– يُخيل لي أني في حُلم..

– وإن لم يكن كذلك.. فهو يومٌ جميل كالحُلم..

– أرأيت أنهم أرادوا أن يعرقلوك..؟

– إنه لأمرٌ سيء أن يفتحوا لك باب السور ثم يحاولوا أن يسدوه بوجهك.

الظهيرة تتثاءب على الجدران والأسفلت المنصهر بخمول.. تزفر قيظاً لافحاً يبعث الكسل..

إقتربا من الباب.. طفح قلبه بنشوة عامرة.. قال بغبطة:

– هل أخبرت الأهل؟

أجاب بإعتزاز:

– سنفاجئهم..

بدا له الباب وكأنهُ قد خرج منه الأمس.. وكذلك بدا له كأنه قد تركه منذ ألف سنة.. كان ذلك مفاجأة كبيرة بالنسبة الى والدته.. نظرت إليهِ بإستغراب، ووقف وهو ينظر إليها..

هي حلمت به كثيراً وهو يدخل من هذا الباب
ثم يختفي.. وهو حلُم أيضاً بالبيت يدخله مراراً..

ولكن أحلامه كانت تؤطِّرها ظلمة كثيفة تحول دون
إلتقائهِ بهم.

عانقتهُ أمه بقوة، وشعر بدموعها تبلّل وجهه.. وإختلطت دموعه بدموعها، لقد إنفجرت دموعه من أعماق قلبه لتترك وراءه راحة لم يشعر بها منذ سنتين. وتحلق خلف إخوانه..

كان البيت يبدو رائعاً، ودَّ لو يُقبِّل كل شيءٍ فيه.. الجدران.. الطابوق المفروش على الأرض.. أشجار الرمان والورود المنتشرة في الحديقة المزدحمة.. كان شارداً رغم ظل إبتسامة الفرح المتساقطة على جوانب فمه العريض..

تلك هي أشجار الرمان تحملُ الثمرة بوفرة.. إلاّ أنه في أحلامهِ لم تكن تتراءى له مجرد فسحة تغطيها المياه.. والأشجار كانت عارية من الأغصان.. الأشكال تنقلب في الأحلام، ولكن الجوهر يبقى ثابتاً..

عبثاً كان يحاول أن يجلس في مكان ثابت، كانت رغبة جارفة تدفعه الى أن يتحرك.. تجول في أنحاء البيت.. كانت معالمه تبدو له كما لو أنه جزءٌ منهُ.. من أعصابهِ ودمهِ..

كان أخوهُ –الأصغر منهُ بأربع سنوات– يبدو له مرحاً، خفيف الظل، أكثر من ذي قبل.. قال وإبتسامة رقيقة تُلازم شفتيه:

– أنت الآن بيننا، إني أكادُ لا أصدق ذلك..

– وأنا أيضاً يُخيل لي أنني أعيش حلماً لذيذاً..

إقترب أخوه منه ووضع يديه على كتفيه، وركّز حدقتيه في عينيه العميقتين وكأنه يبحث عن شيء، قال:

– أتذكُر!.. يوم كنت تطلب إلينا أن نرقص حين نكون سعداء..

قالت أمهُ:

– وماذا تنتظرون؟

أجاب الأصغر بخُبث:

– أريد أن يشاركني..

سحب كرسياً وجلس عليهِ، أطرق برأسه كمن يفكر، ثم رفع رأسهُ قائلاً:

– أنا مُتعب، أستطيع أن أتفرج فقط.

– سأرقص وحدي إذن..

كان قد أعد طبلاً بهذه المناسبة، أحضره وطلب من أحد أخوانه الصغار أن يصعد السطح

وينادي على جارهم «عزيز» على أن يجلب معه شبابته..

مدَّ رجليهِ وأخذ قدح الشاي من يد والدته:

– منذُ سنتين وأنا لم أشرب الشاي من يدك..

– وأنا كنتُ أشربه سماً بدونك يا إبني..

تذكر أنه رأى هذا الموقف في الحلم ذات مرة..

أمه تقدم له الشاي.. لم يكن المكان
واضحاً.. كان مجهولاً.. بيت قديم يقع في أحد
الأزقة الضيّقة، له عدّة أبواب، وكل باب يطل على
بيت آخر، والظلمة مخيمة على البيوت كلها..
والمصابيح منطفئة، وهو عبثاً يحاول إشعالها..

إنتبه الى نفسه حين بدأ أخوه يدق بأصابعه دقات منتظمة على الطبل.. كان اللحن يصعد وينزل، تارةً بقوة وأخرى بهدوء.. ورأى أن أخاه يضبط الحركات بشكل جيد مع اللحن.. كان يرفع رأسه بقوة عند صعود اللحن، وينتفض بمرونة ويميل بجسده بهدوء عند هبوط اللحن حتى يكاد يلامس الأرض، ثم ينتفض فجأةً مع إرتفاع اللحن ويدور حول نفسه بسرعة فائقة تماثل سرعة الدقات المنتظمة على الطبل، ويعود يكرر الحركات نفسها في أشكال مختلفة الى أن ضرب ضربة عنيفة على الطبل وجمد في مكانهِ كالتمثال.

إلتفت الى صاحبهِ، وما لبث هذا ان راح يعزف له نغمات الدبكة الشعبية.. ألقى الطبل على الأرض، وسحب منديله يلوح به فوق رأسه ليضبط حركات رجليه بشكل أدق.. وأستغرق في رقصة صاخبة جعل الكل يشتركون معه في أدائها، بعد أن تشابكت أيديهم، وألحوا عليه أن يساهم معهم، ولكنه إكتفى بالقول:

– دعوني أتفرج فقط..

إجتازت الهلاهل جدران البيت، وتوافد الجيران يهنئونهم .. قال في نفسهِ:

– هذه هي السعادة.. ولكن ترى إلى متى ستدوم؟

الفصل الثاني

بعد أن إستحم بالماء البارد، وحلق لحيته.. وقف أمام المرآة يتأمل نفسهُ وتذكر أنهُ قبل سنتين كان أنحف.. والآن أصبح ممتلئاً شاحب اللون، وقد أضفت الأيام وقاراً ورزانة على تقاطيع وجههِ العريض، وعيناه تبدوان أعمق من أي وقتٍ مضى..

إرتدى بدلته الصيفية الوحيدة التي لم يلبسها سوى لأشهر قلائل، فبقيت تنتظره ليرى لونها الأزرق الفاتح، النور من خلاله، وخرج الى الشارع..

الشمسُ خلف المقبرة، واهنة، يشنقها ضباب أزرق.. رؤوس الأشجار يغطيها لون البرتقال.. إلتفت حواليه يتأمل الأشياء بشكل غريب.. الأحلام شيء والواقع شيء آخر.. هذا الشارع، كم كان يحلم أن يتمشى عبره.. لكم مرّ عبره على متن جياد أحلامه.. وحين كان يفتح عينيه، يستغرق في حزن عميق، وهو يكاد يضرب الجدران برأسه.

مرّ بالمقهى الصغيرة.. المقهى الثانية في الطرف.. رحب بهِ صاحبها بحرارة.. نفس الرواد ما زالوا يخنقون الوقت بضجر.. إسماعيل أفندي.. الحاج أحمد.. رشيد البزاز.. حسين دلال.. الوجوه لم تتغير، سوى تجاعيد ظهرت هنا وتعمقت هناك.. كان لا يصدق أنه سيسمع ذات يوم قرقرة النارگيلة، ويجلس على هذا الكرسي القديم.. لم يستطع أن يُطيل الجلوس.. إن رغبة جارفة تدفعه الى الحركة.. استأذن من الجماعة، وراح يتمشى بخطوات وئيدة.. الحذاء في قدمه يبدو لي غريباً.. وقعُ خطواته على الأسفلت يبعث في نفسه نشوة لذيذة.. لم يكن رأسه عامراً بالمشاريع والأحلام في أي وقتٍ مضى مثل هذه اللحظة.

حين كان يقبع وراء الباب الكبير، لم يكن يفكر سوى في أن يجتازه الى عالم الناس.. العالم الزاخر بالحركة والحياة الصاخبة.

كان القصر هناك مطلاً على النخلة الوحيدة
التي كان جزء من رأسها يظهر من وراء السور،
ومظفر جالس بجانبه، عيناه الكبيرتان مشدودتان
الى النخلة التي تشرب نور القمر.
– في السلمان كنت ترى القمر أقرب الى
الأرض.. والنجوم تكاد تلمسها بيديك..
– وأما هناك فتخنقها أضواء المدينة..
– والمجرّة كانت تبدو كما لو أنها أحد الأنهار العظمى،

يمكنك أن ترى منبعه ومصبه في آن واحد.

– لم تكونوا محرومين من رؤية الآفاق إذن.

– ألا ترى أن طبيعة هذه الأشياء تتغير حين

تلاحظها وأنت خارج السور.

– ربما ستكون تافهة.

– من يدري؟..

– ولكن ألم تكن ذات يوم خارج السور؟

– لكننا كنا لا نفكر أننا سنكون وراءهُ يوما..

– إنه لشعور غريب أن تكون خارجه..

– لبضعة أيام فقط.. وبعدها يبدأ الملل فالبؤس.

وحين كان القمر يرتفع ويبدأ السكون يأتي الفريد والآخرون..

البؤس والملل بعد أن يجتاز الإنسان هذا الباب؟.. فكر أن هذا الكلام مجرد خدعة يمارسها الإنسان ضد نفسه– وإلا فأنه سينفجر..

قال في نفسه:«إجتياز الباب خطوة نحو إستطلاع الحقيقة، رغم أن الحقيقة الكبرى تكمن وراء السور».

هوذا طليقٌ أمام مشارف إستطلاع الحقيقة.. وقادته قدماه الى المقبرة.. وسار بين القبور الى أن بلغ قبر والده.. حين واروه التراب، كان صغيراً.. ،كاد أن يلقي بنفسه في القبر آنذاك..

جثا أمام القبر مستغرقاً في تأملاته يستعيد في ذهنه صورة والده..

.. أنت الآن راقد في مكانك الأبدي ليس

بعيداً عني.. أنت تحت وأنا فوق.. بودي أن

أخاطبك وأنا دون قدميك وليس على إرتفاع منك..

ولكن هكذا شاءت الحياة، لن أكون في مستواك إلاّ

حين يطويني الموت..

أنت لا تدري ماذا يجري حولك، هنا في هذا

العالم الصاخب.. أنت ذهبت، متَ في سبيل

إسعادي..

ما زلت أذكر تلك الإبتسامة التي إنطبعت على

شفتيك وأنت ترحل عنا، وقلبك عامرٌ بالأمنيات

والآمال التي لم تتحقق، والتي كنت مؤمناً أشد

الإيمان بأننا سنُتممِها بعد رحيلك، كنت لا تخشى على نفسك من الموت، أنا أعرف جيداً أنك أستقبلت الموت بجرأة رجل حقيقي، أجل يا أبي كنت رجلاً حقيقياً.. ولكن الرجال الحقيقيين سرعان ما يطويهم الموت وهم في منتصف الطريق...

أجل.. كنت لا تخشى على نفسك الموت.

كنت أخشى ما تخشاه وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة، هو أمر العائلة التي بقيت في مهب الريح تتقاذفها الأعاصير.. وأكبر أبنائها مازال صغيراً في أمور الحياة، وبحاجة الى العون..

لقد حملت قلبي الصغير في كفي وأنا أتعقب آثار خطاك.. أصنع اللقمة من عرقي ودمي علّني أستطيع أن أفسح الطريق لقطرة من الدم واحدة لتسري في العروق المتيبسة..

لقد أدمنت الصخور والأشواك قدميَ الصغيرتين. وأرهقتني الرحلة الطويلة، التي لا نهاية لها.. وها أنا الآن أمامك وخيبة الأمل تعصرني بمرارة، لقد كنت أعتقد بأني سأحقق بجدارة ما كنت تتمناه، ولكنني كنت أركض وراء السراب.. أنا لم أقصّر.. لم أتخلف.. لم أتوان لحظة واحدة في صنع لقمة.. ولكن ما العمل؟.. لقد كانوا يقذفون باللقمة في الوحل.. كانوا يدوسونها بأقدامهم.. لقد أضاعوا معالم الطريق التي تركتها قدماك.. لقد نسوك ونسوا الأمنيات والأحلام التي كانت تعمر رأسك الكبير..

أنا الآن تائه وحيد، خرجت الى ما يسمونه النور لأصنع اللقمة من جديد، ولكن ها أنا أجد نفسي- الآن وقد لفني الضباب من كل الجهات ألمح الأيادي وهي تمتد لتلقي باللقمة في الوحل مرة أخرى.. لست أدري ماذا أفعل؟ جئت إليك

لعلني أستلهم منك القوة، فلقد خارت قواي
وأنهكتني الأيام..

أنت تأتي الى هنا، تخاطب العدم وفي
رأسك ثرثرة لا تنتهي.. أنت لا تستطيع أن تجتاز
الضباب، أليس كذلك؟ ألم تكن تفكر في
إجتياز الباب الكبير فحسب، لتضع قدميك في
الفردوس؟.. لقد ذهب الذي مات وسوف لن تراه
الى الأبد..

ما زالت العائلة تعيش وتحسب الأيام وهي تنتظر
اللقمة التي تصنع لها الرخاء.. فهيا أغمس
أصابعك في الدم والعرق، فما زالت الأيام
أمامك..

.. كان الطريق أمامه وعراً، راح يزحف على
بطنه، وحين بلغ نهايته كان عليه أن ينعطف الى
طريق جانبي ضيق يؤدي الى جبل عال، وكادت
قدماه تنزلقان ويسقط في أعماق الهاوية.. بردت
الدماء في جسمه إلاّ أنه إستند على جدار الجبل،
وتخلص بأعجوبة وراح يزحف على بطنه مثل
الدود.. كانت الصخور تنزلق من بين يديه
وتتهاوى.. لقد بلغ نهاية الجبل ليجد هناك كهفاً
مظلماً تناثرت في أعماقه الهياكل والجماجم، بقيت
من العصور السحيقة، وتسلق جدار الكهف مثل
أي حشرة ليجتاز نفقاً يدخل منه الى النور الى الكهف..
كانت درجاته بشكل حلزوني غير منتظم، ولا يدري
كم قطع من المسافة الى أن وصل الى مكان فسيح
تحيطه الصخور الهائلة وليس من طريق للعودة..

– نحن نفكر أن نخرج من هذا الباب، ولكن هل
تعلم أن وراء كل باب تخرج منه باب آخر؟

كان الرجل المقطوع اليد الذي خطّ الشيب
رأسه، ويعاني آلام الروماتزم في ظهره، ويغني

بكثرة، هو الذي قال ذلك وهو يتأمل الباب الكبير
في يوم ممطر، ويحلم أن يجتاز الباب ليلتقي بزوجته
الصغيرة الجميلة في أقصى الشمال، قبل أن تخمد
البقية الباقية من الطاقة الموجودة في ظهره.. لقد
كان يتحدث في مسائل الجنس بشبق وحسرة..

– ليكن ما يكون وراء الباب، المهم أن نجتازه..

– لقد حلمت أن الباب أخذ يميل تدريجياً وراح ينهار..

– إنه مجرد حلم..

ها هي المقبرة تغرق في لجّة المساء، وراحت الأشجار تبدو كالأشباح.. السواد يطل على كل شيء مثل أحلامه.. كم كان يتمنى إذ ذاك أن يشاهد الأفق وهو لا يحجبه السور..

كل الأحلام ينبغي أن تتحقق.. إنها تطول، تمتد بشكل مرعب تدفع الى اليأس القاتل.. وبغتة وفي ذرى حالات اليأس أو حين لا يكون الأمر في البال، تجد المصراع قد إنفتح، وإذا بالذي كنت قد يئست من العثور عليه هو الذي يبحث عنك ويعثر عليك في مكان، ما كان يخطر ببالك يوماً أنك ستلتقي به فيه.

وهزَّ رأسه موافقاً مع نفسه.. أجل، ولكن على حساب الأيام التي تنخر في كيانك..

•••

أنت الوحيد في قبرك يا أبي.. قلبك الذي أصبح
حفنة من التراب، هادىء غير مضطرب لا يقض
مضجعك..

أنا أيضاً وحيد في عالم الأحياء، ولكن قلبي لا
يعرف إستقراراً.. ها إنا اليوم أبدأ يوماً جديداً،
أعيش حاضري، وقد ضيعت ماضيَ ولا أدري ماذا
ينتظرني غداً.. إني أسير نحو ضباب يزداد عتمةً
كلما توغلت فيه.. إن خطواتي تتجه نحو
المجهول..

وداعاً يا أبي، فقد هبط الليل.. الوالدة المفجوعة
تنتظرني.. سوف أظل أذكرك كلما
خطوت خطوة في مجاهل الضباب، فإني يجب أن
أسعدهما مهما كلف الأمر.

الفصل الثالث

قالت له أمه وهي تحاول إخفاء دموعها:

- ما زلت مسافراً يا بني.. لا أدري متى تتخلص من هذهِ الحقيبة..؟

قال وإبتسامتهُ المعهودة ترفُ على شفتيه:

- لا بد لكل رحلة من نهاية..

- ليكن اللّه معك..

وترك الباب..

ها هو يعود الى متاعب السفر مرةً أخرى..

وقبل أن تنسلخ سنتين من عمره في سباتٍ عميق، إنسلخ قبلهما عقدٌ كامل من الأعوام التي إبتلعتها الأسفار المرهقة كطاحونة هائلة تطلب المزيد والمزيد، دون أن يصل شراعهُ المتعب الى المرفأ.. كان المجذاف فيما مضى قد ترك في كفيه طبقتين خشنتين.. كانت يداه قد تقرنتا من كثرة الجذف.. الآن، أصبحت كفاه رقيقتين، وكذلك قدماه..

لم تعد الآفاق المجهولة محببة الى نفسه كالسابق.. فيما مضى كان يحب أن يجذف ويجذف، غير عابىء بالأمواج المتلاطمة والصخور المتخفية تحت المياه.. كان المرفأ الذي يتراءى له من بعيد، قريباً جداً الى نفسه، كان واثقاً من نفسه ثقة عمياء، وواثقاً أنه سيصل.

واليوم يحجب الضباب الكثيف المرفأ عنه، لا يعلم إلاّ اللّه ماذا يكمن وراء الضباب الكثيف..

وقبل أن يبدأ الرحلة ينبغي له أن يدبر بعض شؤونه ويلتقي بقريبه وصديقه الحميم صالح سعيد الذي لا يمكن أن تتم الرحلة بدونه.. كما وعليه أن يقوم بفترة إستجمام وراحة ويشاهد معالم الفردوس بعد إنقطاع طويل.. اللهفة الجارية في كيانه لإرتياد الآفاق – رغم التعب الشديد– وكذلك إجتياح الضباب مرة أخرى للبحث عن المرفأ.. ولكنه يشعر أن شيئاً ما يصعد من أعماقه، يلفه في وجوم شديد، يخدره يبلده، يشعر خلاله أن تلافيف دماغه تكاد تتقرن مثل كفيه فيما مضى. ويخشى أن تعصف به الريح ويفقد كل شيء.. إلاّ أن حبه القديم للأفق الملون.. وسحر الأسفار، سرعان ما يقضيان على هذا الشيء الغريب.. ويخفق قلبه من جديد لإحتضان الشراع والشمس والبحار..

•••

–طووووووو.. طوووووووو.. طوووت

إتخذ مكانه على مقعد بجانب النافذة..

كان هناك تأتيه الصافرة من مكانٍ مجهول..
يشق السكون، ينساق كالطيف من بين النجوم،
كان الزمن هناك يفقد معناه، فقد كان يُخيل إليه
أنه لم يسمع هذا الصوت منذُ ألف سنة.. كانت
الأشياء التي رآها من قبل، تبدو له كما لو أنه رآها
في أزمان غابرة.. وفيما إذا تسنى لهُ أن يراها مرةً
أخرى.. فبعد زمن لا يمكن حصره في حدود..
الماضي هناك يختلط بالمستقبل، وأما الحاضر فهو حلم
موزع بين الأثنين..

نَحا وجهه عن النافذة.. إلتقت عيناه بعيني رجل أشيب يجلس قبالته وبجانبه فتاة، كانت نظراته لها وحشية.. بدا له أن الرجل يحب الكلام والثرثرة فقد كان يتكلم مع الفتاة بشكل غير منقطع.. إلتفت الرجل إليه قائلاً:

– تسافر الى بغداد؟..

– هزَّ رأسه بالإيجاب..

– لماذا لم تسافر بالسيارة؟..

– هل أستطيع أن أسألك نفس السؤال؟

قال بشبه إحتجاج:

– أنا عندي فقرات..

قال دون أن يبدو عليه أي أثر للهزل:

– وأنا عندي أضلاع

أطلقت الفتاة ضحكة صغيرة..

قال بغضب:

– هل تعتقد أني أمزح معك؟

قال دون أن يلتفت إليه:

– ومن يقول إني أحب المزاح؟

أخرج الرجل علبة سجائره بإنفعال، وراح يدخن.. وأخرج هو الآخر علبة سجائره وقبل أن يلتقط منها سيكارة، مدّ له الرجل علبته قائلاً:

- آسف.. لأنني لستُ مدخناً جيداً فنسيت أن أقدم لك سيكارة..

قال متظاهراً بالجد:

- أنت إذن تدخن في المناسبات..

- نعم..

بإبتسامة:

- حين تنفعل مثلاً..

- وحين أتعرف بصديق جديد مثلك أيضاً..

- أرجو أن نكون صديقين حميمين..

- في القطار فقط..

- وبعده؟..

- سنفترق..

- وقد نلتقي..

- دون أن يعرف أحدنا الآخر..

- هذا إذا أراد أحدنا أن يتجنب الآخر..

- وماذا تستفيد أنت من هذه الصداقة؟..

أعتدل في جلسته وأخذ الموضوع بجد:

- وهل يتصادق الناس من أجل المنفعة الشخصية؟

- بالطبع..

- بإستغراب:

أنا لا أفهم نوعية هذه المنفعة..

ألقى نظرة عبر النافذة ثم إلتفت إليه بعد هُنيهة قائلاً:

- أنت.. ما هي مهنتك؟

- مسافر!..

– كيف؟..

مشيراً بيده:

– هذه حقيبتي، إسألها!

– ماذا أسألها؟..

– إسألها ما تشاء.. ستجيبك بأني مسافر مزمن..

كانت الفتاة تنتبه بإهتمام..

هزَ الرجل رأسه موافقاً:

–حسناً.. لقد فهمت الآن..

– وأنت؟..

– معلم متقاعد..

– والأخت؟..

– إبنتي، طالبة في كلية التربية، بالمناسبة أقدمها إليك..

مدَت الفتاة يدها:

– جميلة..

بخجل

– أحمد حسين.. تشرفنا..

كان ثمة إعرابي قريب منهم ينظُر بإستغراب..

قال الرجل بعد أن زال إنفعاله نهائياً:

– ماذا ستفعل في بغداد؟..

مذكراً إياهُ بالموضوع الأول:

– ونقاشنا حول فائدة الصداقة؟..

دعه يذهب الى الجحيم، أنا لا أحب النقاش في أي شيء، قل لي ماذا ستفعل في بغداد؟

– أفعل ماكنت تفعله أنت حين كنت في سني..

– عجيب..

– لماذا؟

– أنا كنت أنزل في الخان ثم أركب الترام الى الكاظمية، وأقطع شارع الرشيد مشياً.. ثم أرجع..

–فقط؟..

– كان ذلك الزمان غير ما نحن فيه اليوم..

– أنا أيضاً مثلك، أنزل في فندق أشبه بالخان وأتسكع في الشوارع، ثم أبحث عن بعض الأقارب والأصدقاء الذين لم ألتق بهم منذ مدة غير قصيرة..

– أنا حين أكون في بغداد أشعر بالملل، ولذلك أعود بسرعة..

– ذلك لأنك لا تملك صديقاً يناسب مزاجك..

– أنا ليس لي أي صديق..

قال بإستغراب:

– منذ أن كنت شاباً؟..

– نعم..

– كيف؟..

– هكذا نشأت..

– لا أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يعيش بلا صديق.

– وكيف عشت أنا؟

قال ذلك بإعتداد..

– ليس العيش أن يتنفس الإنسان وينصرف الى الأكل والشرب..

حدق الرجل عبر النافذة، الى الفراغ البعيد وقال:

– أكاد أحس بذلك في هذه الأيام..

– وستحس به فيما بعد أكثر فأكثر..

وسكتا..

كانت الفتاة تقرأ كتاباً صغيراً.. وتناول هو مجلة من الرجل راح يقلب صفحاتها.. بينما أخذ الرجل يسرح بنظره في المدى البعيد. بعد فترة غير قصيرة من الصمت قال الرجل وكأنه تذكر شيئاً:

– إن صداقة شاب مثلك شيء رائع بالنسبة لي..

ألقى المجلة جانباً:

- سبق وقلت لك قبل قليل بأننا سنكون صديقين حميمين.

- أخشى ألا يناسبك سني..

قال مبتسماً:

- لقد علمني والدي منذ الصغر مجالسة الرجال المسنين..

- وأقرانك الشباب؟..

- أنا لم أذق للشباب طعماً.. ولا أذكر شيئاً من طفولتي..

- أنت إذاً تحمل بين ضلوعك قلب كهل؟..

- ربما.

- كل الشباب أراهم في هذه الأيام هكذا..

- تقريباً..

- كان المفروض ألاّ تكونوا هكذا وأنتم تعيشون في مثل هذا الزمن..

- وكيف تريدنا أن نكون؟..

- مارسوا شبابكم بكل ما فيه من اللحظات، الحياة أقصر من أن يفكر الإنسان فيها بجد..

- يبدو لي أنك مارست حياتك بشكل جيد..

- بكل دقائقها..

- وكيف لم تستطع أن تكسب الأصدقاء؟

- إذا أنت تعتبر كل من إختلطت به أو عاشرته صديقاً، فأنه لي مئات الأصدقاء..

- ما هو مفهوم الصداقة عندك إذاً؟

- إنها عندي قيد لا يمكنني تحمله مطلقاً.. الصداقة سلب للإرادة، ومضيعة للوقت..

- ولكنني أرى أن الصداقة كالماء والهواء..

قال ساخراً:

- وإنها تضحية وواجب، أليس كذلك؟..

- بالضبط..

أطلق الرجل قهقهة من أعماقهِ وقال:

- إنه الحمق بعينهِ..

– لكل إنسان رأيه في الحياة..

– إبق إذاً كهلاً الى الأبد..

مرّت فترة صمت طويلة.. قطع القطار خلالها مسافة غير قصيرة. عاد الرجل، وكأنه يريد أن يكمل حديثاً:

– حسناً يا سيد أحمد، هل لك أن نلتقي في بغداد إذا سمح وقتك؟..

– سأكون سعيداً جداً، ولكن أليست هذه بداية صداقة؟..

– مؤقتة بالطبع.. صداقاتي كلها من هذا النوع، وسأعلمك ما هي الحياة أيها المسافر..

– لنفرض أن طريقتك في الحياة أعجبتني، وكسبتني الى جانبك بحيث أصبحت لا أستغني عن صداقتك، فهل ستتركني في هذه الحالة؟

قهقه الرجل بنشوة غريبة، ومدَّ يده الى عنقه يُعدل من وضع رباطه الذي أصبح قديماً كسائر ملابسه التي يبدو عليها طابع الإهمال.. وكانت عيناه الصغيرتان تتضاءلان تحت حاجبيه الكثيفين البيضاوين، وتتحول جوانبها الى خطوط عميقة، قال:

– لكنك أنت الذي ستتركني يا عزيزي المسافر المزمن، لأن حبك للبحث عن مرفأ موهوم في عرض البحار قد أعماك عن رؤية سواه..

– للناس غايات وأنت أليست لك غاية؟..

قال بسخرية:

– المقام لا يساعدني أن أنطلق بحرية، ولكني أحب أن أقول بأني لا أفهم هذه الغايات المزعومة..

– أنت ربيت جيلاً، فكيف تتكلم بهذا الشكل؟

– أنا لم أربّهِ، أنا علّمته كيف يكتب الحروف ويكوّن منها كلمات وجملاً فقط..

– ومع ذلك فأنه أنشأ نفسه بنفسه..

قال بإستخفاف:

– لذلك فتح عينه ليرى نفسه كهلا.. لا طفولة ولا شباب..

قال بشيء من الصرامة:

– الذنب ذنبك أنت، أنت ضحية إهمالك..

قال بألم:

– أفهم ما تقول يا بنيَّ، إني لستُ كما تتصور، أنا أيضاً كنت مسافراً مثلك لا تفارقني حقيبتي، لقد كانت حيوية الشباب تدفعني الى أن أجذف في عرض أخطر البحار بلا أي تردد أو خوف.. كنت أتعقب خُطى الشمس فلم أجد المرفأ.. أنت لست المسافر الأول ولا الأخير.. إعتدل في جلسته وراح ينظر الى هذا المسافر القديم بعين الإحترام، قال وهو يتأمل وجهه المملوء بالتجاعيد:

– وبعد ذلك؟

قال متأوهاً:

– مزقت الشراع.. وحطمت القارب.. وألقيت بالمجذاف في عرض البحر.. وعدت قبل أن تلقي بي الأعاصير في أعماق المحيط..

نظر عبر النافذة.. كانت سلسلة جبال زرق ترقد في البعيد..

عادت عينان كبيرتان تحدقان من خلال
النافذة، وهما تارةً تبتسمان.. وتارة تستغرقان في
وجوم شديد.. ويشرق القمر من وراء السور،
برتقالة هائلة ويجلسان معاً ليشربا بعيونهما من نوره
البلاتيني..

ويقول صاحب العينين الكبيرتين، وهو يتأمل
جبال القمر:

– هل تذكر كل جذفنا في البحار الملونة؟.. والقمر
يدور عبر الآفاق دون أن يغيب..؟

– ولكنه قد غاب أخيرا..

– وغرق قاربنا وتمزق الشراع..

قال ساخراً:

– ووصلنا هذا المرفأ الكئيب..

– ذلك حتى نأخذ قسطاً من الراحة، بعد أن أنهكنا
الجذف..

– الجذف الذي أنهكنا عبثاً

– هذه هي الحياة.. حتى إذا تأكد البَحَّار – كل
التأكيد – بأن سفينته ستغرق فأنه لا يتوانى لحظة

واحدة عن ركب البحار..

– إنها قصة الفراشة والشمعة..

– تماماً..

– ولكن الفراشة لا تملك عقلاً..

– إن قوس قزح حين يطل على البحر بألوانه الجذابة، فأن القلب لا يدع مجالاً للعقل أن يفكر..

– ولذلك ترى البحّارة يتحطمون على صخور الشواطيء واحداً تلو الآخر..

– وحين يلفظون أنفاسهم الأخيرة، تجد عيونهم مشدودة الى الشمس.. وتبقى الإبتسامة مطبوعة على شفاهِهم الى الأبد، وهم في ذروة السعادة..

– إنه لغريبٌ حقاً أن يسعد الإنسان لموته..

– إنَ سحر قوس قزح حين يمتزج بدم القلب فأنه لا يُمكن أن يعالج.. إنَ السحرة حين خلقوا مثل هذا الداء لم يفكروا في إيجاد دواءٍ له.

– ياللمصيبة..

– إنها مهنة الموت الإختياري..

– بالطبع، فإذا كان إلتقاط الخيوط الملونة من قوس قزح، لصنع وشاح مقدس لأميرة الأحلام أمراً هيناً، وبلا ثمن، لأصبح كل الناس أبطالاً..

•••

– وما فائدة شيء لا يطلق على الإنسان إلاّ بعد موتهِ؟

– فائدته أن يتحطم أكثر عدد ممكن من البحارة على الصخور حتى يظل البحث مستمراً عن المرفأ..

– حتى إذا إستمر ذلك الى الأبد؟

– قل أبد الآبدين..

– إذا فلن ينجو هذا المرفأ من هؤلاء البحّارة حتى إذا كان في أعماق أعمق بحر على كوكبنا.

وكان القمر يرتفع، ويبتعد عن السور. قال الرجل بعد أن تأكد من دخول القطار الى المحطة الأخيرة:

– لا أعتقد أنك نسيت إتفاقنا..

ألقى نظرة ذاهلة الى الفتاة، ثم إلتفت الى الرجل وقال:

– ألا نتفق على الموعد والمكان؟

– لا داعي لذلك، طالما أنت في بغداد فأني سأعثر عليك بكل بساطة.. على أي حال أنا أقضي أكثر أوقاتي في البرازيلية..

وخُيل له أنهُ مجرد إتفاق وهمي في سبيل المجاملة لا يلبث أن ينساه مع مجرد ترك المحطة..

الفصل الرابع

منذ سنتين لم تطأ قدماهُ أرض بغداد وكان حلماً يراود مخيلته كأُمنية مستحيلة، أن يراها مرةً أخرى.. هل أنه يعبر الشوارع المحببة الى نفسهِ، إنها هي بكل تفاصيلها وليس للخيال أي أثر.. والتفت الى السائق ذاهلاً وكأنه في حلم، وقال:

– شارع الأمين..

وانعطف السائق الى شارع جانبي.. يخيّل إليه أنه جاء الى بغداد البارحة. إن أبعاد السنتين تتقلص بشكل غريب في مخيلته.. وما بالها تتمدد أحياناً وكأنها دهورٌ سحيقة؟

صعد الرصيف، والحقيبة تتدلى من يده اليمنى.. وقادته بلا إرادة منهُ الى فندقٍ إعتاد أن يرتادهُ منذُ أعوام.. ونفذت الى أنفه رائحة الفندق المألوفة.. شعر أنه يتراءى له أصغر مما كان من قبل..

كانت الوجوه التي ترتاد هذا الفندق مألوفة لديه.. وكذلك صاحبه وعُمالهُ.. وحين بلغ المكان الذي عُلِقت أعلاهُ لافتة كتبت عليها «الإدارة» حيث الزبائن من فلاحي الجنوب يثرثرون لم يجد وجهاً واحداً مما سبق أن رآهُ من قبل، حتى صاحبه والعمال قد تغيّروا..

ووجد نفسه غريباً بينهم.. ووقف يجيل نظراته في العيون التي أخذت تُحدق فيه..

قال رجل جالس وراء المكتب لا يبدو عليه أنه صاحب الفندق:

– تفضل أستاذ..

وأخذ العامل الحقيبة من يده.

– الإسم بالخير؟

– أحمد حسين..

– المهنة؟

– المهنة، مسافر..

– أقصد ماذا تشتغل؟

– عاطل..

– سأكتب كاتب..

– أنت أعلم..

وعادت العيون تُحدق فيه مرةً أخرى..

– كان قبل مدة يدير الفندق رجل يُدعى أبو جاسم أين صار..؟

– لا أدري إلا أنني أشتريت منهُ الفندق.

أشعل السيكارة التي قدمها له صاحب الفندق.

إسترعى التلفون إنتباهه.. رأى أن يُخابر صالح سعيد قبل أن يفاجئهُ في منزله.. إلتفت الى صاحب الفندق:

– التلفون يعمل؟

– نعم.. تفضل..

أدار الرقم.. بالأمس حين كان يخابر هذا الرقم يشعر بقلبه يهبط الى أعماقه.. وتتلاحق نبضاته بسرعة وعنف.. عامان، ولم يتسرب الى أُذنه صوتٌ من هذا الخط. ويبدو له الآن وكأنه لم يعرف هذا الرقم ذات يوم..

أجابه هاتف بدا له غريباً:

– آلو.. من يتكلم؟

– أحمد..

– أي أحمد؟

– أبهذه السرعة نسيت أحمد؟

– أخي من ألذي تطلبه؟

– أنت..

– أنا؟: من أنا؟..

– يظهر أنك بدأت تحب المزاح..

جاء الصوت مُنفعلاً:

– بلا معاكسة.. قل لي من الذي تطلب؟..

– أنت ألذي أطلبه.. أنت.. الأبن الأكبر للسيد صالح سعيد..

أووه.. صالح سعيد.. أخي أن هؤلاء قد إنتقلوا من هنا قبل أكثر من سنتين..

قال بدهشة:

– كيف أن البيت ملكهم؟

– لقد صادروه..

– وأنتم إشتريتموه؟

– نعم..

– ولكن ألا تدري الى أين إنتقلوا؟

– آسف.. يظهر أنك أحد الدائنين..

– لا يا أخي إنهم أحد أقاربي..

– على أي حال إبحث عنهم في بغداد في أمان اللّه..

وإنزلقت السماعة من بين أصابعه على الحامل.. وجلس في مكانه ساهماً..

قادهُ العامل الى غرفتهِ في الطابق العلوي.. تمدد على السرير.. كان لا يزال واجماً، وقد أخبره نداء من أعماقه بأن سوءاً قد لحِق بعائلة صالح سعيد.. وألقت أسئلة عديدة بنفسها أمامه..

صادروا بيته؟

لماذا باع بيته..؟

هل دخل مشروعاً ثم خرج منهُ مفلساً؟..

من يسأل عن مصيره؟..

حين كان هناك وراء السور، لم ينقطع عن التفكير فيهم.. كان يستعيد في ذهنهِ تلك اللحظات السعيدة التي قضاها معهم.. صحيح أن من لا ذكريات له لا يستطيع أن يعيش هناك.. وإن كان ثمة مُبرر لوجوده، فهو يرجعه الى عائلة صالح سعيد.. ذلك البيت الذي قضى فيه أجمل ساعات عمره..

الآن يستطيع أن يفهم تلك الأحلام الغريبة التي كانت تنتابه هناك..

زارهم عدة مرات.. كان متأكداً في سره، بأن
البيت هو بيتهم.. ولكنهُ لا يشبههُ بتاتاً..
والشارع غير ما عهدهُ من قبل..

ذات مرة وجد نفسهُ في حديقتهم.. كانت
الأرض مغطاة بالحشيش الأخضر الفاتح.. ولا أثر
للأشجار والأزهار.. وإستقبلوه، وهم يكادون
يبكون عليه، لأنهُ كان في ذروة الشقاء.. وإجتاز
ممراً طويلاً تتخلله عدة أبواب.. ودخل غرفة ذات
نافذة كبيرة، تطل على وادٍ عميق.. لم ير الأطفال
الذين أحبهم، كان يريد في أعماقه أن يسأل..
أين الأولاد؟.. إلاّ أنه كان لا يستطيع النطق..

كان يبحث عن شيء هو كل شيء في وجوده..
ولا يجده.. أين إختفى من أرجاء هذا البيت
الكبير؟.. وكان يُخيل إليه أنه غير موجود في
البيت.. ولكن أين؟.. لا يدري.. كان يبحث
عن الإبنة الكبيرة فلا يجدها.. كيف يستطيع أن
يراها؟.. مجرد رؤية.. أن يرى عينيها السوداوين
فقط، ليتأكد من وجوده هو!..

ويزورهم عدة مرات، ويرى البيت في أشكال
مختلفة، إلا أنه لا يراها هي.. ويريد أن يسأل أمها
عنها.. ولكن يداً وهمية تمتد وتلجم لسانه..

من يسأل عنه؟..

أتراه قد إنتقل الى مدينة أخرى؟.. أم مازال في بغداد؟.. وما مصيره؟..

لقد رآه ذات مرة يمسك من يده ويأخذه الى
غرفة الإستقبال ويطلب منه أن يجلس على أريكة
وثيرة، وحين إتخذ مكانه على المقعد، رأى رجلاً
غريباً بملابس النوم يعبر الغرفة دون أن يتكلم أو
يلتفت.. وشعر بغيرة شديدة تجاه الرجل.. ولأول
مرة رأى إبنته، وكانت تنظر إليه بعينين عميقتين
جانبيتين.. ثم إختفى كل شيء.. وكان الرجل
الغريب طبيباً على ما بدا له..

لقد بدأ يحن إليه حنيناً جارفاً لم يسبق له أن شعر بمثله من قبل.. وخُيل إليه كأنه هو المسؤول عن المصير الذي آل إليه هذا الرجل.. قام من مكانه دون أن يأبه بالتعب.. استقل سيارة وتوجه بها الى المنطقة التي كان يسكنها صالح سعيد.. كانت أشجار النخيل تطل على جانبي الشارع، وتضفي على المنطقة هدوءاً شاملاً، وإبتهج للجمال الذي شعر به أخَاذاً، وراودتهُ نفس المشاعر التي كانت تنتابهُ عند مرورهِ فيما مضى بهذه المنطقة.. كان يُخيل إليه وكأن قدميه لا تطاءان الأرض.. وقلبه يتحول الى شُعلة وهَاجة بين ضلوعه.. وخفق قلبهُ بعنف حين رأى الباب الكبير للبيت الفخم، ولكن ماذا يفيده البيت؟.. ألم يخابرهم ويعرف عنهم كل شيء؟.. فما الحاجة لتكرار السؤال؟

قال للسائق:

– أمام هذا البيت رجاءاً..

وأشار الى أحد البيوت القديمة التي كان يتردد إليها صالح سعيد أحياناً، حسبما يتذكر.. ضغط على الزر.. بعد هُنيهة، خرجت فتاة صغيرة، سألها:

- الى أين تحول جاركم صالح سعيد؟

قالت وهي تنظر بإستغراب:

- لا أدري..

- والدكِ بالبيت؟

- نعم..

- هل تتفضلين وتنادينهُ للحظة؟..

- إلتفت الفتاة الى الوراء، ثم نظرت إليه بإمعان وقالت:

- إنه مشلول لا يستطيع أن يتحرك.. إنتظر لحظة..

هرعت مجتازة الممر الذي يقطع الحديقة الى داخل القصر الفخم والذي تبدو عليه آثار القِدم.. وهمس في نفسه:

- مشلول.. يا إلهي ماذا حدث؟ يظهر أن اللعنة قد حلت في هذه المنطقة..

رجعت الفتاة وطلبت إليه أن يدخل.. وصرف السائق بعد أن نقده الثمن..

كانت الفتاة تتقدمه بشعرها الجوزي، بخطوات متزنة وكأنها تعرفه من قبل.. مدَّ يده بشكل لا إرادي ليتأكد من وضع رباطه، وكان واثقاً من وضع هندامه.. بلغا نهاية الممر، وإنعطفت الفتاة الى ممرٍ جانبي، ثم وقفت أمام الباب، تؤشر بيدها أن يدخُل.

وقعت عيناه على غرفة فخمة، تتدلى من سقفها الثريات، وقد إنتظمت المقاعد النفيسة بشكل مُتناسق.. وثمة مزهرية في أحد الأركان يتلاءم لونها مع ألوان الأزهار التي لم يدري هل هي طبيعية أم إصطناعية؟..

خُيل إليه أن الرجل تجاوز الستين.. وكان جالساً على كرسي خاص متحرك.. قال وهو منشرح الأسارير ودون أن يتحرك:

- لقد فضلّت أن أستقبلك هنا في الغرفة الخاصة براحة العائلة وبين أفراد عائلتي.. لأنك كما يبدو لي من أقارب صالح أو من أصدقائه، ولذلك فأنا أعتبرك أحد أفراد هذا البيت..

- شكراً جزيلاً للمشاعر الطيبة..

قال ضاحكاً:

لا بل أنا الذي أشكرك يا بُني، لأنك تبحث عن صديق عزيز لي.. تنهّد الرجل.. وكانت عيناه وراء نظارتيه السميكتين تحدقان في الفراغ.. وأضاف:

– أنت بمجيئك هنا أسعدتني حقاً.. منذُ متى وأنت تبحث عنه؟

قال بشرود:

– منذ ساعة.

قال الرجل بدهشة:

– منذ ساعة؟.. وأين كنت طيلة هذه المدة؟.. يبدو لي أنك كنت في الخارج..

– لا.. ان بعض الظروف القاهرة، إضطرتني أن أنقطع عنه لمدة سنتين..

– سنتان وأنت لا تعرف عنهُ شيئاً؟..

قال بلهجة اليائس:

– سأكون شاكراً لو ألقيت بصيصاً من النور على مصيره..

قال بإعتزاز:

– أنا إذاً أعرف عنه الشيء الكثير..

جاءت الفتاة بفنجانين من القهوة..

بدت له الآن أجمل وأكبر.. قال الرجل والإبتسامة لا تفارق شفتيه الضيقتين:

– أعتقد أننا نسينا أنفسنا، ولم نتعارف، رغم إننا متعارفان.

أجاب بخجل:

– أحمد حسين..

– فؤاد كامل... فرصة سعيدة جدا..

– لقد زادني تعرفي بكم شرفا..

– وأُقدم إليك إبنتي، التي كان يُحبها كثيرا..

وتقدمت الفتاة، وأحنت رأسها بأدب مصافحةً إياهُ، وقالت بصوت دافيء:

– أحلام..

وقبل أن ينطق بشيء.. قال الأب:

أجل إنها أحلامي، وضعتها في هذه الوردة، بعد أن لم أستطع تحقيقها..

قال كمن هو واثق من ثقافته:

– الأبناء يجب أن يتمموا أحلام آبائهم.

دخلت الأم، ممتلئة تتجاوز الأربعين، رحبت به وجلست على مقعد قريب منهما

إرتشف كمية من القهوة وقال:

– الآن يا عمي أنا متلهف لسماع ما تعرفه عن مصير صالح سعيد..

إتكأ على ظهر الكرسي، ومدَ رجليه، واضعاً يديه على مسندي المقعد وقال بحسرة:

– كان ذلك قبل سنتين حين سمعت ذات ليلة إطلاقات تشق سكون الليل، أعقبها بعد فترة وجيزة صراخ نساء وأطفال.. ثم ما لبث أن خيّم السكون.. وفي الحقيقة كنت أخشى أن أخرج من البيت، إلاّ أن غريزة الفضول دفعتني رغماً عني أن أراقب الحادث عن كثب.. وكم كانت دهشتي شديدة حين علمت أن الحادث قد وقع في منزل صالح سعيد.. ولم أجد نفسي جباناً في حياتي مثلما وجدتها في تلك الليلة.. لقد شُلّت إرادتي ولم أستطع أن أفعل أي شيء.. وجدت صالح جريحاً تنزف منه الدماء وبيدهِ مسدسه يقاوم بشكل غريب.. وحين هدأ كل شيء، دخلت البيت.. ويالهول ما رأيت، كان أطفاله الصغار مذبوحين، والدماء تصبغ كل شيء بالأحمر القاني.. وكانت زوجته الحامل قد شُقَّ بطنها بشكل وحشي.. كان صالح يشد جرحه العميق بقطعة من القماش وبهدوء متناه.. وهو يجيل عينيه بين جثث أولاده.. كنت لا أستطيع أن أتكلم وشعرت بدوار.. كانت الدنيا تدور أمام عيني بسرعة هائلة: ولم أشعر بعد ذلك إلاّ وقد شُلَّ الجزء الأسفل من جسمي.. ولا أدري أين صار صالح.. هل مات متأثراً بجراحه.. أم مازال حياً؟.. إلاّ اني أدري أنه كان حياً حتى بعد أسبوع من إصابته..

لمح أحمد الزوجة وهي تمسح دموعها..

أضاف بعد سكوت قصير:

– ما كنت أتصور أبداً أن لهذا الرجل أعداء يحقدون عليه الى هذه الدرجة؟..

شعر أن موجة عنيفة من البكاء تحاول أن تنطلق من أعماقه وتتحول الى غصة في حلقه.. قال بصعوبة:

– مازال إذاً مصيره مجهولاً؟..

وران على الجو صمت مطبق..

– الآن أترخص يا عمي.. أرجو أن ألتقي بكم في فرصة أُخرى..

– سأكون سعيداً لو ترددت إلينا بإستمرار، البيت بيتك، تستطيع أن تزورنا متى ما شئت.. وأرجو أن تخبرني عن نتائج بحثك عن صالح..

قام من مكانه قائلاً:

– في الواقع لا أستطيع التعبير عن شعوري نحوكم، وأرجو أن أكون بمستوى ثقتكم بي..

إلتفت الى إبنته:

– هيا رافقيه الى الباب..

وخرجا معاً.. عند سيرهما عبر الممر، قال لها:

– أنتِ وحيدة والديكِ، أليس كذلك؟

– كلا ، لي أربعة أخوان وثلاث أخوات.. الجميع قد تزوجوا وتركونا..

– ألا يزوركم أحد منهم؟

– نادراً..

– في أي صف أنتِ؟

– لا أدرس الآن.

– لماذا؟

– لقد أخفقتُ في الدراسة وتركتها..

بإستغراب:

– طالبة مثلكِ تترك المدرسة في مثل هذا العمر؟

قالت بألم:

– لم أكن كسولة في دراستي.. ولست بليدة ولقد تعجبت المدرسات والطالبات لإخفاقي..

هزّ رأسه وقال:

– قدّمي للإمتحانات الخارجية، لا تيأسي، سأحاول مساعدتكِ..

– هل أنت مدرس؟

قال مبتسماً:

– كلا.. ولكنني أعرف كل شيء، أنا مسافر..

بإبتسامة:

– أنت إذن سندباد..

– بحري أم بري؟

وقفا أمام الباب .. قالت بدلال:

– لماذا لم تروِ لنا شيئاً عن مغامراتك؟

– فيما بعد.. والآن مع السلامة..

وترك الباب.. قالت:

– لا تنسى أن تزورنا بإستمرار.. إننا هنا لا يزورنا أحد..

لوّح بيده مودّعاً:

– كما تشائين أيتها المجتهدة السيئة الحظ..

الفصل الخامس

لا يدري الى أين يتوجه ومن يسأل..؟ لو لَم يكن ميّتاً فقط.. وليكن بعد ذلك ما يكون..

كان صالح سعيد قد تحدث إليه عن أعدائه وكيف أنهم سيتحينون الفرص لتحطيمه والقضاء عليه.. وكان يستغرب لشجاعته، وإستهانته بهم.. وكم مرة حذّره من مغبة هذا الإهمال.. وها هو قد لاقى الأمرّين من أعدائه، ومازال مصيره مجهولاً..

إنعطف الى شارع جانبي، وهو لا يعرف وجهته.. خاطب نفسه، وفي أعماقه شعر بالأسى والندم..

«كن شجاعاً بلا تهور.. وإن كنت شجاعاً – وتملك القوة الكافية فلا تستهن بعدوك.. كُن حكيماً.. ولكن حذارِ أن تخلق منك حكمتك جباناً.. إذا كنت شجاعاً، وإستعملت الحكمة بجانب شجاعتك، فأنت رجل..»

ردّد العبارات مع نفسه عدة مرات.. ثم أخرج من جيبه دفتراً صغيراً، ووقف هُنيهة يسجلها في الدفتر تحت عنوان «مذكرات مسافر» واصل سيره، ثم وقف، ينظر كالمجنون الى صف البيوت بجانبي الشارع.

هل يسأل بيتاً آخر؟.. ولكن.. ماذا يمكنهم أن يضيفوا الى المعلومات التي حصلها من فؤاد كامل؟.. كل سؤال في هذه المنطقة لا جدوى منه.. ورأى أنه من المستحسن أن يتصل ببعض أصدقائه الذين يعرف عناوينهم – إن كانوا لم يتحولوا أيضاً– لعله يستطيع بواسطتهم أن يعثر عليه..

كان شعور داخلي يُنبئهُ بأن صالح سعيد حي يرزق، وكذلك إبنته.. ليس من المعقول أن تموت.. من المستحيل أن يرقد ذلك الشعر الفاحم والعينان الواسعتان تحت التراب.. كان لا بد أن يشعر في أعماقه بموتها..

وتارةً أخرى.. كان الشعور بالشؤم يجتاحه بشكل مرعب.. ترى لو علم فيما بعد بأنها ميتة، فماذا يبقى له بعد ذلك.. ألم يكن وجودهُ جزءاً من وجودها؟.. ألم تكن هي الأمل الوحيد الذي كان يشرق أمامه في كل لحظة، وراء السور وخارجه؟ لو كان لوجوده سبباً فهو يعزيه إليها بالذات.. فكيف –إذا كانت قد ماتت– لا يشلّ كيانه؟.

بالأمس رآها..

لم يكن طيفها يدل على أنها في عداد الموتى..
طيف الموتى يتقدم بشكل مستقيم وبلا حركة،
خارجاً من مكان مجهول مظلم، ومكللاً بالبياض
الناصع.. هي كانت تقف وراء حاجز غير عال..
كانت تنظر إليه وتتأمل عينيه.. مرَ شاب غريب..
وأشار إليها دون أن يتكلم.. ثم سار في إتجاه
معاكس له.. وما لبثت هي أن أعقبه.. عقدت
الدهشة لسانه فلم يستطع أن يتكلم.. وقال في
أعماقه أن لها حرية الإختيار. وفجأة رجعت الى
الوراء تاركةً إياه يسير في طريقه.. وكان هو لايزال
واقفاً في مكانه.. تقدمت منه ووضعت يدها بين
كفيه.. وحين سارا معاً وضع ذراعه حول عنقها،
ثم جلسا على حافة نافذة، وكانت هي قد أسندت
رأسها على صدره، فوق قلبه، بحيث إنتشر شعرها
حول فمه وأنفه ولم يكن يحس بأي شيء حوله.
كان كل شيء أشبه بالضباب.. ولم يستطع أن
يرى حتى ما تطل عليه النافذة..

لا لم تمت، ولم يمت هو أيضاً.. إنهما في مكان ما في بغداد ولابد أن يعثر عليهما مهما كلف الأمر..

وقف عند موقف باص، طالما نزل هنا متوجهاً الى مسكن صالح سعيد.. وإن كان ثمة ذكريات يحتفظ بها، إنما في هذه المنطقة التي يكاد لو يحتضن كل شيء فيها، ويلثمه لثماً.. إن غياب صالح سعيد عن المنطقة يضفي عليها كآبة تبعث حزناً عميقاً يتوغل في أعماقه كتوغل النصل السام في اللحم، فيبعث فيه الوجوم والشرود..

الباص لم يتغير.. حتى المقاعد تبدو وكأنها تسأل عنه..

في هذه الزاوية جلس هو وواحدة ذات مرة، خرجا للنزهةِ معاً.. وكان يُخيل إليه أنه يسبح بين النجوم.. كانت تقول له وهي تجتاز المسافات اللامتناهية بعينيها العميقتين:

– سوف نطوف العالم كله..

– الى أن نصل مرفأنا الذي سنلتقي عنده على الرمال ونحتضن الشمس المعلقة فوق الشراع..

– وسنجعلها لا تغيب أبدا..

– وذلك بربطها بالحبال بالسارية..

– ستكون رحلتنا شاقة ومتعبة..

– لا بل ستكون أجمل رحلة نقوم بها..

هنا في هذا الموقف ران عليهما الصمت.

أستغرب لهذه المشاعر القديمة التي راحت تستيقظ في أعماقه من جديد.. ألم يكن قد نسيها؟.. ما بالها الآن تعود لتنتصب أمامهُ؟ تصب النيران على قلبه المتعب..

وراء السور..

مع إطلالة القمر.. يجري نهر النجوم بهدوء..

وحين يشنق النور عيون الظلام، تكون الزاوية

المظلمة قد خيَّم عليها السكون.

ويسأل صاحبه، وهو يعيش تفاصيل

قديمة:

– أنت لم تحدثني عن عينيها..

قال بوجوم:

– ماذا أحدثك عنهما؟.. مهما وصفتهما لك

فأنك تجهلهما أكثر..

كم أنت عاشقٌ غريب.. أن قلبك بلَورٌ كبير..

– إذا لم يحترق القلب بشعلة الشوق فإن الرحلة

لم تتم. سوف لا تستطيع أن تجذف خطوة

واحدة..

– ولذلك كانت قلوبنا أشبه بشراب مُقدس يظل

يسكرنا دون أن ينتهي.

– ما أحلى أن يبقى الإنسان تحت سكرة أبدية..

كل الآفاق تتلون أمامه إذ ذاك بألوان قوس قزح..

– ولن يمل لحظة واحدة عن الجذف المستمر..

– ولكنني أشعر أن قلوبنا لم تعد كما كانت عليه

من قبل..

– لقد تعبت من كثرة الجذف والبقاء في الجُزر المهجورة..

– ياللجُزر المهجورة التي إمتصت أيامنا بلا رحمة..

عيونهما تذوب في القمر.. نهر النجوم يجري
هادئاً.. الصمت خيم أكثر فأكثر..

عندليب يغني على النخلة وراء السور..
ويزقزق عصفور مشدود على الجدار.. وكان النهر
يصبُ في خليجٍ شفّاف..

وحين كانا ينزلان معاً من الباص، كان يود أن يحضن كل إنسان يصادفهُ في الطريق.. وينطلق الى حد الجنون..

لم يعبأ بالتعب.. توجه الى الباب الشرقي وإنعطف الى أحد الشوارع المتفرعة من السعدون.. وقف أمام عمارة.. راح ينظر إليها بدقة هي بالذات قيل له أنه يسكن هنا وقد تحسنت أوضاعه المادية، وتخلص من تشرده المزمن..

صعد السُلم، وبلغ الطابق الثالث.. شقة على اليمين.. ها هو إذن، إنه تحول فعلاً الى إنسان.. تصافحا وجلس الى جانبه.. بدا له أن صاحبه قد تضاءل أكثر.. قال وهو يقدم له سيكارة:

– كنت أتتبع أخبارك دائماً..

– وأنا أيضاً.. وقد سمعت ذات مرة أنك لاقيت حتفك، تأثرت جداً، وكدت أبكي..

– ولماذا لم تبكِ؟..

– كنت غير متأكد من موتك..

– والآن ماذا ستعمل؟

قال ساهماً:

– أفكر في رحلة جديدة..

قال بسخرية، وهو يطلق قهقهة عالية:

– رحلة جديدة؟ أين أنت من دنيانا؟.. هل أنت مجنون؟.. لقد تغيرت الدنيا، وأنت ما زلت نائماً.. اصح أيها المغفل..

– أنا لست الوحيد الذي تغير.. العالم يتغير في كل لحظة.. أنت تعيش خارج دائرة الزمن..

وأضاف وهو يقوم من مكانه ليتمشى في أرجاء الغرفة:

– أنا أرثي لحالك حين أراك واقفاً في مكانك، والأشياء من حولك تتحرك بسرعة مذهلة.. لك الحق يا أحمد، إن عينيك ما زالتا لا تريان الأشياء بوضوح، ولكنك ستفهم كل شيء فيما بعد..

قال وهو يضع رجلاً على رجل، ويضع ذراعه على مسند الأريكة:

– حديثك يا محمود يناسب شقتك الفاخرة.. على أي حال يمكنك الإسترسال في الحديث، فأني سأنصتُ إليك كما كنتُ أنصتُ إليك قبل أعوام.. هل تذكر آخر لقاء لنا؟..

– أعتقد كان ذلك قبل أربعة أعوام حين ذهبنا لمضاجعة عاهرة..

– كنا آنذاك نحاول أن نجرب كل شيء، ولكن بخوف أليس كذلك؟..

– وما زلت أنت تجرب كل شيء تجد نفسك محروماً منه..

– بالطبع اني أريد أن أغرق في اللحظات التي تمر من عمري حتى القمة، لأنني أضعت الكثير من لحظاتي عبثاً..

– وهذه اللحظات التي تعيشها حتى القمة، ألا تذهب عبثاً..

– إنها تؤكد وجودي..

– وتمتصهُ أيضا..

– مهما يكن فأنا أقيس عمري باللحظات التي أتمتع فيها بكل حواسي ومشاعري، وما عداه فهو عدم..

قال بأسف:

– لم تعد محمود الأمس.. إنك أنت الذي كنت تسخر من مثل هذه الكلمات بمناسبة أو غير مناسبة.. وكنت أنا لا أعبأ بها وأرى أن لكلٍ طريقتهُ في الحياة.. في حين أنت تريد أن تقضي على كل من يخالفك في رأيك وترميه بالجهل والبلادة. وها أنا قد وقفتُ على شاطىء آخر، تستهزىء من الآخرين..

– أنا أنفعل مع كل جديد.. وأعيش الواقع، في حين أنت لا تهزّك الأشياء بسرعة..

أضاف بعد سكوت قصير، بشيء من السخرية ممزوجة بهزل:

– عواطفك لم تعد مُرهفة..

– هذه طبيعتي، صخرة في أعماق بحيرة..

قال بإستعلاء:

– على أي حال إبق في بغداد وحاول أن تعثُر على عمل..

– وهل العثور على عمل أمر سهل.. قل ألا تعرف شيئاً عن صالح سعيد؟..

قال بسخرية:

– وهل تظن أن صالح سعيد على قيد الحياة؟.. حاول أن تبحث عن قبره..

شعر بوخز في أعماقهِ، قال بتأثر:

– أهكذا ينسى الإنسان بسرعة؟..

– لقد عدت الى نفس الإسطوانة..

– على أي حال، هل أنت متأكد من موته؟..

– لقد أعلن أعداؤه، أنهم قد قضوا عليه.. ولكنني لا أُصدق ذلك..

قبل أن يُلقي نظرة أخيرة على أرجاء الشقة، قام من مكانهِ وتفحص تمثالاً صغيراً أمام المرآة الكبيرة..

ثم نزل السلم..

لم يكن يصدق مظفر حين قال له:

– سترى الأشياء كلها قد تغيَّرت.. وربما ستتغير

أنت أيضاً ونصبح غريبين عن بعضنا البعض..

كم بسرعة تتغير الأشياء؟.. وراح يشك في نفسه وشعر أنه يشك حتى في صالح سعيد نفسه، ذلك الإنسان الذي كان يعتبره المثل الأعلى في الحياة..

«فيا لخيبة أملي إذا كان قد تغير صالح سعيد

أيضاً. والطامة الكبرى تبدأ حين تدير واحدة ظهرها

لي.. إذا كان الأمر كذلك فياليتهما كانا في عداد

الموتى»..

وفكر بإستغراب.. واحدة تُدير لهُ ظهرها؟.. معنى ذلك أن كل شيء قد إنتهى.. كل شيء ممكن في هذا العالم الغريب.. نعم، لقد كان هو عالم آخر..

تحت شعور شديد من الحزن والشرود، عاد الى الفندق.. وجد نفسه غريباً بين العيون التي شدَّت إليه في خضم لغط غير منقطع..

نزع ملابسهُ، وإستلقى على السرير.. كانت ساقاه مُتعبتين.. قام الى الحمام، ثم طلب من العامل أن يوصي له على عشاءٍ خفيف..

كانت رغبة تلحُ عليهِ أن يترك الفندق، ويُهيم على وجههِ في الشوارع.. وكانت خيوط الشمس الواهنة تتلاشى على الجدار القريبة من السقف..

قطع شارع الجمهورية مشياً دون أن يعبأ بالتعب، وقد كانت غلالة من الحزن تُخيم عليه أشبه بتلك الغلالة التي كانت تجتاحه وراء السور.. قادته قدماه الى بار شعبي في الباب الشرقي.. جلس في أحد الأركان لوحده غارقاً في صمته، رغم الضجيج الحاد من حوله..شعر أن الأشياء ليست كما عهدها من قبل، أول صديق حميم يلتقي به، خاب ظنّه فيه، والأصدقاء الآخرون؟.. كيف هم الآن ياترى؟ لابد أنهم من نفس النمط. وصالح سعيد، هل يمكن أن يتغيّر؟.. وواحدة؟.. واحدة التي هي كل شيء بالنسبةِ إليهِ.. الخيط الوحيد الذي يربطه بالحياة.. ماذا يكون إذا إنقطع هذا الخيط؟..

مزج البيرة المثلجة بالعرق وراح يتأمل الفقاعات الصغيرة المتصاعدة من قاع الكأس..

عينا صديقه السوداوان، كانتا تحدقان خلال
الذهب المذاب..

«أن تضع الكأس هكذا أمامك..
وتمسكها بأصبعيك الإثنين برفق.. على أن يكون
القمر مشرقاً مثل هذه الليلة.. هل تدري أن النور
حين يذوب في الخمر يكون الصعود عالياً جداً؟..»

– أجل أعرف ذلك، ولكن الشيء الذي لا أعرفه،
هو أن ذلك المذاب الغريب لا أستطيع تصوره
الآن..

– لعل يوماً سيأتي ونمد أيدينا لنمسك كؤوساً
حقيقة..

– إنه سيأتي، ولكنني أخشى أن تخمد هذه اللهفة
وتزول..

– إن زوال الرغبة في شيء، لأمرٌ مفزع، أنه يعني
النهاية..

– طالما أننا نعيش خارج دائرة الزمن فإن شعلة
الرغبة لأتفه شيء ستبقى متّقدة..

– قد تنطلق قبلي.. إياك أن تنساني ، حين تقرع
كأساً بكأس..

•••

– الآن أنا جالسٌ لوحدي، وها هو الكأس بين أصابعي أحملها برفق، ليس من كأس آخر.. وها أني أقرع كأسي بكأسك الوهمية... هل تسمع رنينهما؟.. إنه خافت... خافت جداً.. يسمعه القلب فقط..

أفرغ كمية كبيرة في جوفه..

حين ملأ الكأس الثالثة، لمح رجلاً جالساً لوحده في أحد الأركان، خُيل إليه أنه يعرفه.. وحين إلتقت عينا الرجل بهِ، قام من مكانه أنه بالذات، صديقه الذي تعرف عليه، وقضى معه فترة من الزمن وراء السور.. كان الخدر قد سرى في ساقيه.. وحين إلتقيا، تصافحا وتعانقا بحرارة.. سحب مقعداً وأجلسه بجانبه، قال وقد بدأ السكر يسري في أوصاله:

– ما كنت أحلم أننا سنلتقي في هذا المكان.. يالها من صدفة سعيدة..

وأنا بدوري كنتُ لا أحلم أننا سنرى بعضنا البعض مرةً أخرى..

– ولكن.. ها أننا نلتقي في أروع مكان.. إنه الواقع، الواقع بعينه إنه ليس أمنيات..

– قليل من الصبر، يترجم كل الأمنيات الى الحقيقة..

– صحيح.. صحيح.. قل لي هل تذكر يوم كنا نخدع بعضنا البعض ونخدع أنفسنا؟..

– بالتأكيد كنت تعتبرني نبياً من الأنبياء.. أليس كذلك؟..

– بالتأكيد.. وها أنا الآن نبي الخمور..

حدق فيه صاحبه بعينين غائرتين، قال وهو يزيح خصلة من شعره الطويل:

– على أي حال ماذا تعمل الآن.. وما هي مشاريعك؟.. صبَّ لهُ كأساً ووضعها أمامه قائلاً:

– اليوم وصلت بغداد، وليس لي حالياً أي مشروع.. أنت تعرف بالطبع صالح سعيد، وقبل أن يكمل كلامه قاطعه صاحبه، قائلاً:

– صالح سعيد.. لقد سمعت أنه مُختفي عن الأنظار وقد صدر بحقه أمر بإلقاء القبض عليه، وأنهُ متهم بالقتل..

قال بدهشة:

– صالح سعيد مُتهم بالقتل.. وكيف؟..

– سمعت أنه قد تقاتل مع أعدائه.. وقتل عدداً منهم..

– ألا تعرف شيئاً عن مكانه؟..

– كلا.. ولكنني رأيت قبل أيام في أحد الشوارع رجلاً متنكراً بالكوفية والعقال كان يشبهه بلحمه ودمه، حتى إنني أردت أن أكلمه، إلا أنني كنتُ أشكُ في ظني..

- إنه حيٌّ إذن..

- أستطيع أن أجزم لك ذلك..

- ألم تسمع شيئاً آخر عنه بعد؟..

- هذا كل ما أعرفه عنـ..

قال بحيرة:

- لا أدري كيف يمكنني العثور عليه..

- من يبحث يعثر.. وسأحاول من جانبي أن أساعدك..

- سأكون شاكراً لو ألقيت بصيصاً من النور على مكانه..

- لا داعي للشكر، أنا أيضاً أبحث عنه، لأنني بحاجة إليه..

بلهجة سرور:

- شيءٌ رائع أن أجد من يبحث عنه..

- كثيرون هم الذين يبحثون عنه..

- ربما لقتله..

هازاً رأسه:

- أيضاً..

- والآن أين تشتغل.. وماذا تعمل؟..

- مضى عليَّ أكثر من ثمانية أشهر، وأنا عبثاً أبحث عن العمل..

- أمازلت غريباً عن هذا العالم؟؟..

- لا.. لقد تعودت عليه.. سوف يأتي اليوم الذي تحن فيه الى عالمك القديم..

- وها بدأت تحن إليه؟..

- كل الحنين..

- ولكنه لم يصبح قديماً بعد..

- كل شيء يصبح في خبر كان، يعتبر قديماً والجديد هو ما يأتي..

- والموجود في متناول اليد، الذي يعيش الحاضر..

- إنه يتجه في قيمته وأهميته الى الصفر..

– الصفر إذن رقم من الأرقام..

– إنه ليس رقماً، إنه لا الشيء الذي يحيط بالشيء من الجانبين..

– تعني أن الشيء –وأي شيء – يبدأ من الصفر ثم ينتهي إليه..

– تماماً..

– في هذه الحالة يكون الصفر شيئاً..

– أقول أن الصفر لا شيء..

– فكيف إذاً يتكون الشيء من اللاشيء؟.. إنها تكاد تجنّني..

– بلا أي جنون.. هذه هي الحقيقة، والتي أؤمن بها، ولك الخيار في أن تؤمن بها أو تستهزىء منها..

قال في نفسه: «أنت أيضاً قد تغيَّرت يا صاحبي»..

– ولكن هل تذكر يوم كنت تستهزىء من هذه الأحاديث؟..

– صحيح، لقد كان ذلك في زمانٍ ومكانٍ معينين،. لقد سبق وقلت لك قبل قليل أن كل شيء يصبح في خبر كان يُعتبر قديماً..

بعد فترة صمت عاودا الحديث..

وحين غادرا البار كانت الساعة حوالي الثانية عشرة.. وقبل أن يبلغ الفندق أصيب بدوار.. تقيأ قرب أحد الأعمدة.. ثم إجتاز درجات السلم بصعوبة بالغة..

الفصل السادس

بدأ يومه بعد العاشرة بملل إجتاح كيانه.. «أن يكون الإنسان وحيداً بلا صديق فأمرٌ مُسِئم»..

أحتار فيما يفعلهُ اليوم، والى أين يذهب.. وبعد أن هام على وجهه على غير هدى في شارع الرشيد قرر أن يذهب الى فؤاد كامل، ويسر إليه الخبر، وأحس في أعماقه أنه يشعر بالحنين إليهم..

وفيما هو على الرصيف، لمح فجأةً المعلم المتقاعد على الرصيف المقابل وهو يناديه بأعلى صوته وعبثاً يحاول أن يعبر الشارع. إبتسم لهذا التصرف الغريب.. وعبر هو الشارع.. وتعانق الرجل معه عناقاً حاراً..

– أنت يا أخي لطيف، لطيف جداً.. لقد بحثت عنك طيلة يوم أمس فلم أجدك.. أين كنت؟

– كنتُ في بغداد، وأين تريدني أن أكون؟

– ولكن في أي جزء من بغداد؟ قل لي ماذا فعلت وأين ذهبت؟

– لم أذهب الى أي مكان..

قال بدهشة وهما يسيران بإتجاه الباب الشرقي:

– عجيب.. يقول لم أذهب الى أي مكان.. كيف قضيت النهار إذن؟

– لقد قضيته في البحث عن قريب عزيز دون جدوى..

– والليل؟

– لقد قضيت جزء منه في البحث عن ذلك القريب ثم ذهبت الى أحد البارات وسكرت..

وإستغرب حين قال:

– عظيم.. عظيم جداً.. وبعد؟

– هذا كل ما في الأمر..

قال وغمزات عينيه توحي بأنهُ لا يُصدقه:

– معقول شاب مثلك يكتفي بالسُكر؟

أجاب وهو يشعر بالحرج:

– أقول لك هذا كل ما في الأمر..

– إذا كان الأمر كذلك فيالك من مسكين، قل لي من هو هذا القريب الذي مزجت الليل بالنهار في البحث عنهُ؟

– أنت لا تعرفهُ..

– أنا أعرف كثيراً من الناس، لعلهُ سيكون أحد الذين أعرفهم.. ما أسمهُ؟..

– إنه يدعى صالح سعيد..

إندهش الرجل:

– أجل يظهر أنك تعرفه..

قال كمن يريد أن يتذكر شيئاً:

– أسم غير غريب عليّ..

وبعد أن سار هُنيهة.. هزَّ رأسه..

وقال كمن يريد تذكر شيء:

– ولكن من يقول أن هذا الرجل الآن على قيد الحياة؟

– أنت واهم.

– أنا واثق من ذلك كثقتي من وجودك أنت..

– ولكنني سمعت من كثير من الناس أنه قتل..

– أنا أيضاً سمعت ذلك.. ولكن هناك من رآه قبل أيام بأم عينيه.

– على أي حال، ليذهب قريبك هذا الى الجحيم، ماذا تريد منه؟ إن كان موجوداً فستعثر عليه إن آجلاً أو عاجلاً، والآن قل لي هل أنت مرتبط بموعدٍ ما؟

– الواقع كنتُ أريد أن أزور صديقاً، ولكني طالما إلتقيت بك فأستطيع أن أرجيء الزيارة الى فرصة أخرى .

قال بإرتياح:

– قرارٌ جريء، هكذا أريدك أن تكون.. والآن لنعرج الى «البرازيلية».

جلسا وراء الواجهة مباشرةً.. وهما ينظران الى المارة..

إرتشف كمية من عصير الليمون الحامض وقال:

– أنظر هل ترى هؤلاء الناس الرائحين والقادمين؟ أنظر الأفندي المحترم وذلك الرجل الأحدب بائع السكائر وتلك السيدة المتأنقة وكل هذا الزحام الذي لا نهاية له، لماذا يعملون، هل تدري؟

– لأن الحياة تتطلب ذلك..

نقر بأصابعه الى المنضدة :

– صحيح.. ولكن هذا ليس هو المطلوب، أنا في القطار، أردت أن أنطلق معك بشكل صريح ولكن وجود إبنتي حال دون ذلك.. إذ أنني لم أرد أن أكشف أمامها المسائل بالقلم العريض.. فهناك إعتبارات مازالت تهيمن علينا.. على أي حال هذه الحركة التي تجدها أمامك كلها من أجل شيء واحد فقط هو الجنس..

قال بنوع من الإستغراب الممزوج بالسخرية:

– الجنس؟.. أنا لا أفهم ذلك..

– أجل الجنس.. الجنس هو كل شيء في الوجود، الرجل يدفع نفسه حتى الى الهلاك من أجل المرأة.. والمرأة تعمل المستحيل من أجل أن تحصل على الرجل أو يرضى بها.. الفراشة تموت بعد لذة واحدة، والعقربة تعرف جيداً أنها ستنشطر الى قسمين بعد إجتماعها بذكرها.. كل شيء ، يعمل ويعيش من أجل الجنس.. هل فهمت؟

– فهمت ولكني أرى رأيك غريباً جدا..

– قد يكون الآن هكذا بالنسبة إليك، ولكن ستراه صحيحاً ذات يوم.. لولا الجنس لما كانت الحياة.. إنه مصدر الأكوان كلها.. إنه الوجود.. إنه كل شيء.. لولا الجنس لأضرب الناس كلهم عن العمل رجالاً ونساءاً..

قال مبتسماً:

– أن قلبك أكثر خضرةً من الربيع.

أجاب بإعتزاز:

– بل ربيع دائم.

إعتدل في جلسته:

– ولكني أحب أن أعرف كيف كان قلبك حين كنت في سني؟

أجاب بأسى:

– كنت خامداً كقلبك، لأنني كنت أيضاً لم أفهم الحياة بعد.. كم أتمنى لو أرجع ثلاثين عاماً الى الوراء، لأعيش حياتي كما أريدها، ولكن فات الأوان.

– أهكذا بعنف تحب الحياة؟

– وأكثر.

– ولكنها ستنتهي رغم كل شيء..

– أعرف ذلك، وهذا ما يجعلني أشعر باللحظات تهرب مني بسرعة، تبتلعني كغول..

– هذا نتيجة التفكير الكثير في الموت. يبدو لي أنك تخاف الموت بشكل رهيب..

– وهل هناك من لا يخافه؟.. كل من ينكر ذلك فهو إما حيوان بليد أو يغالط نفسه.

– الكل يخافون الموت.. ولكنهم لا يفكرون فيه مثلما أنت تفكر.

– ومن يقول أنا أفكر فيه بالشكل الذي تتصوره؟

– التشبث الزائد بأي شيء هو دليل الخوف منه.

– كم أنت فيلسوف أيها الكهل الصغير.. ولكن قل لي هل أنت خبير بالنساء أيضاً؟..

– أعتقد بأن خبرتي محدودة في هذا المجال.

– سأكون إذاً أستاذك في هذا، على أن تكون أنت أستاذي في مجالات أخرى.

– لا أعتقد أن هناك من هو أحسن منك في كل المجالات.

– على أي حال هل ترى هذا القدح؟ إني في هذه اللحظة قد أرتوي مما فيه، ولا أحتاج إليه إلا بعد ساعتين أو أكثر، وأما المرأة فأني لن أشبع منها أبدا.. لا توجد بالنسبة لي لحظة إرتواء.. أنا أحب أن أذوب فيها وأنصهر.. أحبها أن تكون أمام عيني في كل لحظة.. إنها كالشمس والماء والهواء..

– ياله من عطش غريب أنت كالصحراء التي لا يمكن أن تطفو عليها مياه العالم كلها..

كوّر قبضته وضربها بقوة على المنضدة بحيث إسترعى إنتباه الجالسين وقال:

– بالضبط، تشبيه رائع.. الصحراء على الأقل تُنبت الصُبّير، وأما أنا فجفافٌ في جفاف؟

– لا شيء.. يا أخي لا شيء.. ومع ذلك أريد أن أعيش كسائر الناس..

– ولكنك لا تكتفي بذلك. أنت تريد أن تشرب كل مياه العالم.

– إنه سوء الحظ، ماذا أعمل معه؟.. على أي حال هذه هي الحياة إنها إمرأة كبيرة..

هناك أسطورة تقول أن الكرة الأرضية تقف على قرن ثور، ولكني أستطيع أن أُكذب هذه الأسطورة.. أن الصحيح هو أنها تقف على ثدي إمرأة.. أليس كذلك؟

– من المحتمل أن رأيك هو الأصح.

– بلا شك، على أي حال سنتناول الغذاء في أحد المطاعم الجيدة، ثم أنتقل بك الى عالم غريب عنك.. وما عليك سوى أن تنزل الى أعماق الحياة وتنظر إليها بمنظارها الحقيقي..

– ولكن أليست هذهِ إذن الصداقة التي تنفي وجودها أنت؟

– بلى..

قال كمن إنتصر في رأيه:

– تنازلت عن رأيك إذن؟

– سأتنازل عنه، كنتُ قد أدركتُ ذلك في المدة الأخيرة.. ولكنك حسمت الموضوع في الوقت المناسب.

– لكنني لا أعتقد بأن صداقتنا ستدوم..

– لا تقل ذلك.. ستدوم رغم كل شيء..

– إننا مختلفان كل الإختلاف.

– أبداً.. أبدا.. سترى فيما بعد كيف أنك سوف لن تستغني عن صداقتي.

– سنرى..

الفصل السابع

– الآن تُشير الساعة الى الثامنة والنصف.. وقت مناسب، إنها الآن في البيت وليس لديها أي موعد.. إن صداقتنا ستنطلق من الآن فصاعداً بشكل جديد هيا بنا..

– ولكننا لم نشرب سوى زجاجتين من البيرة.

– هيا الآن، سنشرب هناك.

تركا المقهى في أبي نؤاس، وإستقلا تاكسي الى بغداد الجديدة..

لم ينتبه الى الشوارع والفروع التّي مرت بها السيارة.. وقفت في فسحة، وقاده الرجل الى بيت ذي طابقين في ركنٍ مظلم.. قال قبل أن يضغط الجرس:

– هنا تقع أعلى قمة لجبال اللذة في العالم.. إذا كنت مُتسلقاً جيداً فأنك ستفتح أبواب الجنة..

– وكم باباً للجنة؟

– كلما فتحت باباً وجدت وراءهُ أبواباً، إنها لا تنتهي..

فُتِح الباب.. وخرج رجل قميء قائلاً:

– أهلاً وسهلاً..

–أنظر.. ها هو أحد أبوابها قد إنفتح على مصراعيه.. وها هو ملاكٌ من ملائكة الجنة يفرش لنا جناحيه.

– يالك من رجل عظيم..

– أنت أعظم..

– لو كنت تعلم أين كنتُ قبل إسبوعين..

– في الجحيم.. وهل هناك غيره؟

– وجدت..

– لا يهم.. المهم أنت الآن في الفردوس.. الحياة هي هذه اللحظة.

– ولكنها تهرب بسرعة..

– كم أنت خبيث أيها الكهل.. أنت تشدني الى الموت، ألا تدع النشوة تبقى في مكانها؟

كانت إمرأة بدينة تطل من الشرفة في الطابق الثاني، قالت:

– جبار أفندي، ألا تنتهي من مناقشتك؟ هيا إصعد.

إلتفت الى فوق وقال بصوت ممطوط:

– أنا صاعد يا مولاتي.

الآن فقط عرف أنه يدعى جبار أفندي..

كانت تتجاوز الأربعين.. لم يجد فيها ما يثير الإغراء، جلب الرجل القميء منضدة وضعها في وسط الغرفة، بينما أخذ جبار أفندي يعانق المرأة ويُشبعها بالقبلات في أنحاء مختلفة من جسمها.. ولما شعرت بأن أحمد لا يهتم بها وقفت أمامه ورفعت ثوبها كاشفةً عن ساقيها، ثم جلست بجانبه واضعةً يدها على ساقه وبالأخرى كانت تداعب عنقه.. قالت وهي تفرك أذنه:

– لماذا أنت صامت ألا يعجبك المكان؟

نظر إليها.. وكان قد إستسلم قال:

– هيا الى الغرفة الأخرى.

وضع الرجل القميء الكؤوس والصحون على المائدة..

بعد فترة قصيرة عاد أحمد وجلس على أحد الكراسي حول المائدة، ثم تبعته المرأة.. ترك الرجل القميء الغرفة وذهب لشراء العرق..

قال أحمد:

– لقد ضيعت عليَّ يوماً كاملاً، لعلني كنت أستطيع خلاله أن أعثر على «صالح سعيد».

– وماذا ستحصل عليه؟ ليذهب الى الجحيم.

قالت المرأة بدلال:

– أنا أعرف، الأستاذ لا يُعجِبهُ المكان..

قال جبار أفندي:

– الذنب ذنبكِ، أنت لا تعرفين كيف تتصرفين معه، أنت لا تعرفين هذا الشاب آوه العفو، هذا الكهل، إنه من نوعٍ فريد، لولاي لما جاء الى هذا المكان أريد أن تتصرفي معه بشكل جيد.. أنه جزءٌ كبير من ذكرياتي.. إنه يمثل شبابي الذي ضاع.

قالت المرأة بحسرة:

– الذنب ليس ذنبي، إنه ذنب الزمن، لا يمكن للربيع أن يجتمع بالشتاء.. أنا وأنت كلانا شتاء، فما ذنب الربيع تريد أن تطمرهُ تحت ثلوجنا؟

– مظهري فقط يُشبه الربيع وأما أنا من الداخل فشتاءٌ قارس.

قال جبار أفندي بجد:

- إذا لم تعالجي الأمر يا فاطمة فأنه سيهجر مثل هذه الأمكنة الى الأبد وبذلك نفقده.. أليس كذلك يا أستاذ أحمد؟.. أنا لا أريد أن أفقد صداقة إنسان نادر مثلك؟..

- أنت تبالغ كثيراً يا أستاذ جبار.. أنا أتشرف بكما والجو مريح جداً..

قالت المرأة:

- كلامٌ صادر من اللسان فقط وليس من القلب..

بعد قليل دخل الرجل القميء حاملاً قناني البيرة والعرق وأكياس مملوءة بالفواكه والمأكولات. خرجت المرأة معه، ثم دخلت بدونه وبدأوا بالشرب.. هي لم تخفف العرق تركته مركزاً.. جبار أفندي مزجه بقليل من الماء، وأما هو فمزجه بالبيرة.. إلتقت الكؤوس الثلاثة وقال جبار أفندي:

- نخب صداقتنا الأبدية..

بعد حوالي ربع ساعة دخل الرجل القميء مع إمرأة ذات شعر أحمر لم يرَ أروع منها في حياتهِ.. إحتار أين يُركز نظراتهِ.. حين كان يُحدق في عينيها كان الصدر يشدهُ إليهِ، فيجذبهُ الخصر الدقيق والساقين المكتنزتين.

وفي الوقت الذي إرتشف كمية من كأسه قام جبار أفندي من مكانه وقبّل الرجل القميء من جبينه وهو يقول:

- أنظروا يا عالم، هذا الإنسان يسمونه خارج هذا المكان قواداً.. ألا يستحق لقب حارس الجنة؟

ثم شدّ ذراع المرأة الجميلة وأجلسها بجانب أحمد قائلاً:

- الآن تم النصاب، الربيع يُقابل الشتاء.

قالت المرأة الكبيرة للرجل القميء:

- الآن تستطيع أن تنصرف.

كانت الساعة تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل حين بدأ جبار أفندي يتقيأ.. وما لبث أن تحول لون وجههِ الى زرقة قاتمة وجحظت عيناهُ ثم أُغمي عليه.. وقبل أن يوصلوهُ الى المستشفى مات في الطريق.

قال الطبيب الخفر:

- تسمم في الدم..

وكانت المرأة الكبيرة قد إستدعت الرجل القميء بالتلفون، طلبت من أحمد والمرأة الأخرى أن ينصرفا وقالت:

- أنا أعرف أهل الميت، سأتولى بنفسي تسليم الجثة إليهم.

الفصل الثامن

هرعت الفتاة الصغيرة نحو الباب وهي تصيح:

- ماما.. ماما.. جاء سندباد..

فتحت الباب مُرحبةً بهِ وقالت:

- كنا نتوقع مجيئك اليوم.

قادته الى نفس المكان السابق وقبل أن يجلس على مقعد قريب. سألها:

- أين الوالد؟

- مع جماعة من أصدقائه في غرفة الضيوف

- لماذا جئت بي الى هنا إذاً؟

وحين قام من مكانهِ دفعتهُ من كتفهِ دفعةً قوية، وقالت بلهجة آمرة وهي تضحك:

- لا عليك.. إنهم شيوخ كبار السن لهُم أعمالهم الخاصة بهم..

أجاب بلهجة المستسلم:

- إذن الدخول ممنوع.

- بالطبع..

قال بلهجة تنم عن السخرية..

- يظهر أنهم إجتمعوا لأمر خطير.

أجابت مبتسمة:

- حين أخذت لهم القهوة سمعتهم يتحدثون عن جغرافية العراق.

هزَ رأسه وقال ساخراً:

- إنهم يدرسون إذن قضية تغيير مجاري أنهار العراق وجعلها تجري من الجنوب الى الشمال..

- إنهم نفس أصدقاء والدي الذين يترددون عليهِ منذُ أن لم تنجب والدتي بعد أكبر إخواني الذي تزوج منذ أكثر من عشرة أعوام.

- ومع ذلك فهم مازالوا يدرسون جغرافية العراق..

– الآن ألا تدعيني أشاركهم في مجلسهم؟

– لا.. أرجو أن تترك الموضوع..

– إذن إسمحي لي بمغادرة منزلكم..

– لن أسمح لك بذلك ولن تخرج من هنا، ألم تعدني بأنك سوف تحدثني عن أسفارك؟ أم إنك كُنت تخدعني؟

– كنت أعتقد أنكِ نسيتِ ذلك..

أجابت مُحتجة:

– وهل تتصورني بلهاء لهذه الدرجة؟

– لا.. لا.. العفو، أرجو أن لا تُسيءِ فهمي على أي حال يبدو أنكِ تُحبين الأسفار وإرتياد الآفاق التي لا تنتهي!

– ومن لا يحبها؟.. إنها حلم..

– ألم تسافري مع والدكِ في رحلات بعيدة؟

أجابت بإستهزاء:

– مع والدي؟.. إني منذ أن عرفت نفسي لم أجده يغادر هذه الجدران.

– ألا يزور حتى أصدقاءهُ؟

– أنهم هم الذين يأتون إليه..

– وكيف يقضون أوقاتهم؟..

– أنهم يدخلون تلك الغرفة يقضون فيها ساعات ثم ينصرفون وغالباً ما يتناولون الغذاء مع والدي..

– ووالدتك ألا تتذمر منهم؟

– إنها تخدمهم بصمت ولم أسمع منها كلمة تذمر واحدة في حياتي.

– وصالح سعيد ألم يحضر قط مجالسهم؟

– أنا لا أذكر ذلك.. ولكن والدتي تقول أنه كان يحضر مع أصدقاء آخرين حين كنت صغيرة جداً..

أحضرت الوالدة فنجاناً من القهوة، ورحبت به ثم أنصرفت.. قال بعد أن أطرق هُنيهة وارتشف القهوة:

– كم ألفاً من فناجين القهوة أتلفوا وهم مازالوا يدرسون جغرافية العراق؟

– دعنا من أسئلتك الغريبة هذه، ألا تريد أن تتحدث عن أسفارك؟

– لكنني أخشى بعد الإستماع اليَّ أن يُصيبكِ جنون الأسفار فتتيهين مثلي بين الجزر المجهولة.. أو يحولون دون إنطلاقكِ فتشعرين بثقل هذه الجدران.

– الآن أشعر أني سجينة.

– لا تُفيدكِ إذاً قصتي..

– بالعكس، على الأقل أنها تُسليني.. وسأستعيدها في وحدتي ثم أقصها على والدي ووالدتي..

– ليس فيها ما يشوق الآخرين للإستماع إليها.

– مهما تكن فهي قصة وفيها أحداث..

– إنها ليست كما تتصورين.. إنها أشبه بقصة يرويها مجنون.

– هذا أفضل..

– يا لكِ من ملحاحة، لماذا كنتِ لا تُلحين على دروسكِ بهذا الشكل حتى تنهين دراستكِ؟

أجابت متحسرة:

– أقول لك أن عدم إكمالي لدراستي أعجوبة يتحدثون بها حتى الآن، وتستطيع أن تسأل.. أنا لا يهمني ذلك فأنا مرتاحة الضمير..

تناول سيكارة وأشعلها..

– حسناً، أيتها الفتاة الذكية..

كنتُ صغيراً جداً، كانت جدتي تحبني كثيراً وتقص عليَّ قصص الملك سليمان وخاتمه وكنوزه.. وتُحدثني عن البساط السحري الذي ينقل الإنسان عبر السهول والوديان الى مدن غريبة تحيط بها الجنائن التي تعيش فيها الحوريات والطيور الملونة، وتجري فيها جداول العسل والحليب. كنتُ إذ ذاك أعتقد أن النجوم معلقة فوق رؤوسنا قريبة منّا، وأن كل من يرتقي برجاً عالياً يستطيع أن يتناول واحدة منها.. وكنتُ أعتقد أن كل من يرتقي الجبل يستطيع أن يلمس القمر.. كانت تقول أن كل من يعثر على خاتم الملك سليمان فأنه يستطيع أن يعثر على كنوزهِ التي لا تُعد ولا تُحصى.. وحلمتُ ذات ليلة أن الخاتم مدفونٌ في بيتنا وحين إستيقظت في اليوم الثاني بدأتُ أحفرُ في المكان البعيد فلم أجد شيئاً، وحزنتُ كثيراً..

وحلمتُ ذات ليلة أني أملكُ نجوماً وألعبُ بها ورأيت القمر معلقاً في غرفتي.. وكم كان فرحي عظيماً، وحين إستيقظت لم أجد شيئاً ورحتُ أصيح كالمجنون أين نجومي.. أين قمري؟.. وكنت

أصطدم المرة تلو المرة بالواقع المر، الى أن أُصبت بعُقدة الشك والفضول..

كانت عينا الفتاة الصغيرة قد شدتا الى عينه:

كنت أعتقد أن نهاية العالم تقع وراء الجبل الذي يرقد وراء بلدتنا، وكم كنتُ أتمنى أن أرتقيه لأطُل على ما وراءه.. وقد تحقق لي ذلك الحلم مرة، وصعدت الجبل مع أهلي، فإذا بمسافات شاسعة وسلسلة أخرى من الجبال تقع في المكان الذي كنت أتصوره نهاية العالم.. وأصبحت عندي رغبة جارفة في أن أعرف ماذا يوجد وراء تلك الآفاق البعيدة..

وعندما كبرت كان همي أن أجتاز ما يسمونه بالحدود.. وأرتاد الآفاق والبحار. كنتُ أبحث عن مرفأ يقع على جزيرة الفردوس.. وقد سمعت كثيراً من الآخرين بأني مصابٌ بالجنون.. وكنتُ أستخفُ من عقولهم التي كانت تبدو لي أنها متحجرة، وقد أستطعت أن أصنع لنفسي قارباً شراعياً.. وأطلقت لقاربي العنان ورحتُ أجذف في عرض البحار المترامية الأطراف وأتمتع بمناظر شروق الشمس وغروبها، وبالقمر يطل من أعماق البحر.. كنت أستلقي على رمال الشواطىء الذهبية، وأرى الحوريات اللواتي يتألقن تحت أشعة الشمس، وأتجول في الغابات الملونة، ثم أواصل جذفي الى جُزُر أخرى فأرى الغرائب والعجائب..

وذات يوم علمت بأني قد أقتربت من الجزيرة المقصودة وكانت أبراجها وقصورها البيضاء تترأى لي من بُعد، وما لبث أن إنتشرت غيومٌ في السماء وهطلت الأمطار.. وكانت الغيوم لم تبلغ ناحية الشمس بعد، لذلك كانت أشعتها تبدو قوية، ثم ظهر في السماء قوس قزح لم أشهد له مثيلاً في حياتي، كان رائعاً جداً ورحتُ أجذف بقوة رغم الأمواج المتلاطمة.. ولكنَ الغيوم السود بدأت تنتشر بسرعة غريبة، وإختفت الشمس، وأظلمت الدنيا لقد كان ذلك كسوفاً عظيماً.. وأصبحت الأمطار جزءاً من البحر. وكنتُ لا أدري الى أين أتجه.. إنها كانت.. لعنة السماء..

وحين ظهر الخيط الأبيض كان قاربي المقلوب الذي يشدني به حبل قوي قد بلغ أحد السواحل، وكنتُ أرجف من البرد.. وحين أشرقت الشمس راحت تبعث الدفء.. وما أن إستلقيتُ في مكاني حتى أستغرقتُ في نومٍ عميق لم أستيقظ إلا بعد ضربات قوية على رأسي وأرجلي..

وحينما فتحت عيني رأيت شلة من الرجال المسلحين يحيطون بي من كل الجهات.. وقالوا لي وبصوت واحد وبسخرية:

– ها.. أيها المسافر البطل.. من ماذا تبحث هنا؟ سوف نريك اليوم كل شيء.. سوف نجعلك تكُف عن البحث الطويل..

وإقتادوني الى قصرٍ عظيم.. ونمتُ بين الهياكل العظمية، والجُثث، كانت ثمة رؤوس مُقطعة، أيادي مُقطعة، أرجل مُقطعة، أصابع مُقطعة، كانت كلها مُلقاة هنا وهناك في الزوايا.. وكانت

ثمة عيون أيضاً قلُعت من محاجرها.. كانت أشباه الرجال مُعلقة كالصور على الجدران.. ولا أدري كم يوماً بقيتُ هناك.. ثم أرسلوني عبر مدن صحراوية الى مكانٍ آخر، يقع وراء سور عظيم أيضاً.. وهناك طفتُ مرتين حول الشمس.. ثم وجدت نفسي مرةً أُخرى وراء السور.. حيث لا أحد يسأل عني.. وها أنا الآن كما ترين عائد من العالم الآخر وجالسٌ بين يديكِ يا أميرة القصر.. وأنا خالي الوفاض كما يقولون.. لا عثرتُ على خاتم سُليمان ولا على كُنوزه.. ولا بلغت جزيرة الفردوس.. بل تركتُ إسمي الحقيقي في ذلك القصر بين أكوام الأيادي والأرجل المقطوعة والرؤوس المهشمة.. لقد رجعتُ بلا أنا..

كانت عيناها الصافيتان مازالتا مشدودتين الى عينيهِ، قالت:

– أنت جعلتني أعيش أحلام الطفولة.. وأطوفُ حول العالم مع سندباد..

قال مبتسماً:

– لا بد وأنكِ قد تذكرتِ جدتكِ أيضا..

– أكلُّ هذا الذي ذكرته صحيح؟..

– لكِ أن تُصدقي أو لا تُصدقي..

حدثت جلبة صغيرة وإنفتح باب الغرفة المجاورة، قامت الفتاة بسرعة قائلةً:

– لقد إنصرف ضيوف والدي..

وبعد قليل دخل فؤاد كامل بكرسيه ذي العجلتين ووراءهُ إبنته.. قام أحمد من مكانه مُصافحاً إياه.

– كنتُ أعتقد أنك ستأتينا أمس..

– كانت لي بعض الأشغال.. أشكر شعورك..

– ماذا عن صالح سعيد؟

– لقد تأكدتُ أنه موجود، وفي صحة جيدة ولكنهُ مطلوب من العدالة..

هزَّ رأسه موافقاً:

– نعم.. لقد علمتُ ذلك.. كل شيء يجري بالمقلوب في هذه الأيام.. فأنا أعرف صالح.. إنه يعرف كيف يُدبر أموره.. إن القبض عليه غير ممكن..

– هذا ما أعتقده أنا أيضاً..

أطلق شهقة ثم قال:

- ليتنا كُلنا مثله..

دخلت الأُم وراحت تُقدم القهوة..

قال فؤاد كامل موجهاً الكلام الى أحمد وزوجتهِ:

- سيتناول أحمد الغذاء معنا اليوم..

ثم أضاف موجهاً الكلام الى إبنته:

- أحلام إبنتي لقد أتعبوني اليوم كثيراً، أحب أن أسمع إسطوانة شهرزاد..

وإنساب اللحن بهدوء..

الفصل التاسع

بقايا من لحن شهرزاد ترن في رأسه، تختلط بالموجات التي تمزق عليها الشراع وتتجاوب مع هدير العواصف التي حجبت الشمس فيما بعد، لتطل من خلالها عينا «أحلام صغيرة».. وتجره قدماه بتكاسل للتسكع بشوارع بغداد من جديد للبحث عن صالح سعيد.. لابد من العثور عليه..

شعر بالغربة.. بأنه غريب عن كل شيء.. رغبة مُلحة تجتاحه لأن يستكين الى الإستقرار.. الى الركون إلى مسكن.. وأيُّ مسكن.. وها أن الملل الطاحن يلفهُ من جديد. أين المفرُّ إذن؟ الى أين يهرب؟

وفكر.. ما هو السر الذي يكمن وراء وجود صالح سعيد؟.. ألا يشعر هذا الإنسان بالضجر؟..

ألا يُخنقه ضيق الإختفاء عن الأنظار؟..

إنهالت الأسئلة على رأسهِ الصاخب الذي ما زالت بقايا شهرزاد ترن فيه، وتتحول الى ألوان قوس قزح تحتضن بحراً لا نهائياً..

ووراء السور.. حين كان الظلامُ يجثم على الزاوية، تجتمع الشلة من جديد لإحياء حفلة شاي تحت ضوء القمر.. من الذي تودعه الشلة هذه المرة لينساها؟.. أإنهُ هاشم.. وستودع جاسم عما قريب ويبقى الفريد وصالح ومظفر.. ويوسف..و.. و..

ستبقى الشلة طالما كان السور موجوداً..

ألم يقولوا له أن الضجر هناك أكثر إزعاجاً؟..

ها أن الدوامة تُعيد نفسها من جديد.. إنها هي هي.. سواء أكانت هناك وراء السور، أم هنا في العالم المحصور بين سور أعظم؟.. أهكذا ينهار الحلم الكبير؟ أتظل الغربة تشنقه من الداخل؟.. كان هناك يشعر بالضياع.. ولكنه لم يكن بمثل هذه الدرجة.. إنه الآن يشعر بإنسحاق بطيء..

كان الشارع مهجوراً.. وبدت له بغداد مهجورة، كل شيء مهجور.. مهجور.. وسار وكأنه بلا رأس.. تذكر عبد الجبار أفندي الذي مات بشكل غريب.. واجتاحته رغبة في أن يذهب الى العاهرة البدينة التي خلفها له المرحوم.. لا بد من الإلتجاء إليها لقضاء هذه الليلة عندها.. ولكن، ألا يذهب الى الصديق الذي وعده في البار بالبحث عن صالح سعيد؟.. لعله قد نسي الموعد.. مع ذلك ينبغي أن يعرج الى هناك..

وفي وقتٍ متأخر سيتخذ طريقه الى البدينة.. ولعل الفتاة الأخرى أيضاً هناك..

بدت له الأمسية أشبه بالكابوس.. بغداد، هذا العالم الصاخب يبدو له مهجوراً كأية مقبرة ريفية.

واصل سيره بلا هدف مُحدد.. ركب الباص في ساحة الميدان ونزل في الباب الشرقي.. كانت الشمس تختفي في الجانب الغربي..

وفي الساحة الواسعة كانت أضواء النيون والإعلانات الكبيرة تتلألأ، والسماء الأرجوانية تتحول ببطء الى ظلام.. عبر الساحة بإتجاه شارع الجمهورية..

شعر بيد تمسك ذراعه.. وفي لحظة خاطفة خُيل إليهِ أنها يد صديقه الذي وعده بالبحث عن صالح سعيد.. كانت المفاجأة غير متوقعة حين إلتقت عيناه بعيني رجل لا يعرفه.. كانت سحنته جامدة. قال بصوت هزيل:

– من فضلك أستاذ.. أنت مطلوب لدقيقة واحدة فقط. ثم تنصرف الى شأنك..

عرف كل شيء بلا أي تفكير، قال بعد أن شحب لونه:

– أنا؟

– نعم أنت.

– هل أنت متأكد من هويتي؟..

– كل التأكيد..

– ولكن ماذا تريدون مني؟..

– دقيقة واحدة فقط ثم تنصرف..

– أخشى أن تتحول الدقيقة الى أشهر..

بِحدَة:

– بلا أي نقاش.. أقول لك هيا معي..

– وماذا لو إمتنعت؟

بخفة متناهية سحب مسدساً صغيراً من تحت سترتهِ وقال:

– الآن.. أعتقد أنك لا تستطيع أن ترفض أوامري.. أقول لك دقيقة واحدة ثم تنصرف..

وسارا جنباً الى جنب.. إنعطفا الى شارع جانبي ثم دخلا مركزاً للشرطة.. إجتاز دهليزاً ضيقاً.. وقف هو في نهايته لفترة خيل إليه أنها ليست بالقصيرة.. خرج ذو السحنة الجامدة ومعه رجل يرتدي الملابس المدنية أيضاً ووراءهما مفوض.

قال الرجل بعد أن دخلوا غرفة أخرى:

– أسمك؟..

– أحمد حسين.

– عمرك..

– ستة وعشرون عاماً..

– المهنة؟..

– عاطل..

– متى غادرت السجن؟..

– قبل أيام..

– كم يوماً وأنت في بغداد؟..

– ثلاثة أيام..

– لماذا جئت الى بغداد؟..

– وهل زيارة بغداد ممنوعة؟..

– كلا.. أنه مجرد سؤال..

– جئت للنزهة..

– وبعد؟..

– هذا كل ما في الأمر..

– لا هناك أسباب أخرى لزيارتك..

الرجل ذو السحنة الجامدة يكتب والمفوض ينصت.. وينظر إليه ببلاهة..

– لا أفهم ماذا تقصد بالأسباب الأخرى..

– أعتقد أنك تفهم قصدي جيداً، ولكنك تتجاهل.. لنكن صريحين..

– قد يكون وقع الصراحة أحياناً قاسياً..

– صحيح..

– أنتم لا همً لكم سوى خلق المتاعب للناس..

كاد المفوض أن ينتفض من مكانه.. ولكن الرجل الهادىء نظر إليه بإستهجان.. ثم إلتفت الى أحمد وقال:

– نخلق المتاعب لمن يخلق لنا المتاعب..

– ما هي المتاعب التي خلقتها لكم؟..

– ثلاثة أيام وأنت تبحث عن أخطر مجرم أقضَّ مضاجعنا.. أينما إتجهنا وجدنا ظلَّه.. ما هي علاقتك بهذا المجرم؟..

– أي مجرم؟..

– أتتصورنا بلهاء الى هذه الدرجة؟.. لقد دوخت بغداد في البحث عنه..

– لا أعرف ماذا تقصد..

– هل تنكر معرفتك بصالح سعيد؟..

– المجرم الذي تقصده إذن هو صالح سعيد؟..

– بالضبط.. وإذا تعاونت معنا في البحث عنه فسننقذك من هذا التشرد..

قال بإستخفاف:

– يؤسفني ذلك، ولكني أحب أن أؤكد لكم بأن هذا الإنسان ليس مجرماً..

– إذا كان كذلك لماذا لا يُسلم نفسه الى السلطات المسؤولة؟..

– إذا كنتم تعتبرونه مجرماً قبل محاكمته، فكيف تُريدون منهُ أن يُسلم نفسه وهو يعرف مسبقاً ماذا سيكون مصيره..

– إذاً أنت أحد شركائهِ؟..

– إذا كنت كذلك لكنت الآن معه..

– لا فرق شريك قديم، فرقتكم الأيام.. وأنت الآن تبحث عنه على أحر من الجمرّ..

– هذا رأيك..

– حسناً، لننته من هذه اللحظة.. جرى اليوم في منزل الوجيه المعروف فؤاد كامل، إجتماع ضمَّ شخصيات كبيرة.. ويُعتقد أنك حضرت هذا الإجتماع ماهو دورك بين هؤلاء؟.. وما هي علاقتك بفؤاد كامل؟

هزَّ رأسهُ مبتسماً بسخرية:

– أنا لست وجهاً من الوجوه حتى أحضر هذا الإجتماع إذا كان ثمة فعلاً إجتماع.. وسبب ترددي الى منزله هو مجرد الإستفسار عن صحته، ولنا معه صلة القرابة.. ألا يجوز للإنسان أن يزور أقاربه؟..

ولكن لم كل هذا التخوف من إنسان مشلول مثل فؤاد كامل؟..

وضع الرجل يده على المنضدة، وأسند ظهره على مسند الكرسي.. قال:

– هل تعتقد أنك تستطيع أن تضحك على ذقوننا بمثل هذا الإدعاء؟..

– أنا أعرف مُقدماً بأنكم لا تقتنعون بكل ما أقوله.

– ولذلك لا تكشف لنا أية حقيقة..

– إن ما ذكرته لكم هو الحقيقة بعينها.. بقي أن تصدقوا أو لا تصدقوا..

نظر الرجل الهادىء الى المفوض. قام هذا من مكانه وقاد أحمد الى الخارج.. كانت غرفة التوقيف تقع في نهاية دهليز مظلم:

– أنت ستبقى هذه الليلة ضيفاً علينا، وسنخلي سبيلك غداً..

ورحب به أصحاب الوجوه الصفر ذي العيون الغائرة، فرشوا له فراشاً خاصاً، وأحضروا له الملابس، سأل أحدهم:

– ما هي تهمتك؟..

أجاب بدون مبالاة

– لا شيء.. تهمة البحث عن أحدهم..

قال آخر:

– من يكون؟..

– شخص يدعى صالح سعيد..

هتف الكل بصوت واحد، جاء منسجماً بشكل غريب.

– صالح سعيد؟..

أجاب بدهشة:

– من أين تعرفونه؟

فقال أحدهم، خُيل إليّ أنهُ كبيرهُم:

– كُلنا من أجله..

– هتف بإستغراب:

– كيف؟..

أشعل سيكارة وقدمها الى أحمد، ثم أشعل لنفسه سيكارة أخرى وقال:

– كان مُختفياً في منطقتنا، داهمته الشرطة ذات ليلة وكادوا أن يلقوا عليه القبض، ولكننا إستطعنا أن ننقذهُ وهو الآن في مكان أمين.

قال وهو يكادُ أن يعانقهم دفعةً واحدة:

– أنتم إذا تعرفون صالح سعيد؟..

– كمعرفتنا لأمهاتنا..

– وهل أنتم متأكدون أنه في مكانٍ أمين؟..

– يظهر أنك كنت في عالمٍ آخر..

– وإبنته هل هي على قيد الحياة؟..

– إنها معهُ دائماً..

عقدت الدهشة لسانه، ولم يستطع أن يتكلم.. كان الملل الذي يعصرهُ منذ يومين قد تبدد.. وأحس في أعماقه براحة غريبة تمتد وتنتشر في دمائه وأعصابه. كان لا يشعر بما يدور حوله.. ولم يجتحهُ أي إحساس بالسعادة، حين جاء أحد السجانين وأبلغه أن حاكم التحقيق قد رفض التوقيع على مذكرة التوقيف..

كان قد أطبق عليهم السكون، ولكن ما لبث أن تحول الى لغط شديد..

طوز

آب ١٩٦٦

١٩٦٧/٤/٦